



روايات د. نجيب الكيلاني  
من روائع الأدب الإسلامي



# رجال وذئاب

◆ Men and Wolves



Dr. Naguib Al Keilany

# روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا



**الصحوة**  
ALSAHOB

دار الصحوة للنشر والتوزيع

5 عطوفة فريد من شارع مجلس الشعب  
السيدة زينب - القاهرة

تليفون 002022393777

تليفون فاكس 0020223937767

بريد إلكتروني

daraisahob@gmail.com

# رجال.. وذناب

— د. نجيب الكيلاني —

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى للنشر

١٤٢٤هـ - ٢٠١٢م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٢٠٣٢٤

الترقيم الدولي:

978-977-255-369-3



للنشر والتوزيع  
٥ محطة فريد - من شارع مجلس  
الشعب - السيدة زينب  
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨  
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٧  
daralsahob@gmail.com

ابتسم الدكتور «عادل فتوح» فى مرارة، وأخذ يتمتم وحيداً فى غرفته «بيت الامتياز»، أو سكن الأطباء كما يسميه البعض، كان متعباً يغالبه النوم، فقد ظل طوال الليل يستقبل الحالات المرضية العاجلة . . إنه يقضى هذا الشهر فى قسم الحوادث أو الطوارئ، منذ أن يذهب إلى القسم فى السابعة مساء وحتى السابعة صباحاً لا يكاد يكف عن العمل، الوجوه التى يراها دائماً شاحبة . . أو منقبضة، أو ملوثة بالدم . . التأوهات والآهات هى الأغنية التعسة التى تتكرر على سمعه . . فى البداية كان قلبه ييكى مع هؤلاء التعساء المتألمين لكنه بعد أيام أخذ يستقبل الأمر بحياد . . حياد العالم الذى يحلل ويفكر فيها يجب عمله، ثم تحول الحياد إلى برود تام . . كان الحياد يتميز بقدر غير قليل من

القلق . . نعم فهو يبحث عن القرار الصحيح ؛ لأن الخوف من التشخيص الخطأ يزعج المحايدين . . وأخيراً لم يعد يكثرت حتى بالخطأ إن حدث ؛ لذا فقد أصبح يأكل جيداً ، وينام فى أى وقت يلقي بجسده فيه على السرير ، ويخرج إلى الأندية ، والشوارع ، والمقاهى ، ودور السينما سعيداً مرحاً دون أن ينغص عليه منغص .

إنه يريد أن يتزوج زميلته الدكتورة «فضيلة علام» ، كان يرى فيها الجمال الذى ينشده ، والأسرة العريقة التى تعوضه عن أصله المتواضع ، والثراء الذى بدونه لا يستطيع أن يصعد ، لكن الذى آله أشد الألم هو ما يراه فى تصرفاتها من هدوء وتؤدة ، إنه يقبل عليها بجماع نفسه ، عندما يحادثها تنطلق كلماته فى حماسة وحرارة ، ويسارع برسم صورة نابضة بالسعادة لمستقبلهما معاً ، وعندما ترد عليه تلطمه عباراتها الوقورة المتأنية ، وخاصة عندما تشير إلى أن الزواج ليس أمراً سهلاً ، وأنها لم تعرفه بعد حق المعرفة ، وأنه لا وجه للعجلة ويصرخ وهو يلقي بجسده على سريره :

- «من تظن نفسها هذه المغرورة؟؟ أنا أول الدفعة . .  
عبقريتي يتحدث عنها الجميع . . وليس هناك أى عيب فى  
سلوكى أو شكلى . . إننى لا أستطيع أن أفهم مغزى سلوكها  
معى . . إذا حاولت لمس يدها سحبتها غاضبة . . وإذا  
انتقدت لبسها للحجاب بدا الاشمئزاز والضيق على  
وجهها . . هل معنى ذلك أنها . . لا . . لا مستحيل ، لا  
يمكن أن تحب غيرى ، إننى أراقبها منذ سنوات . . والزملاء  
فى القصر العينى لا يرحمون . . لو أن لها علاقة بإنسان آخر  
لانتشر الخبر ، وفاحت الرائحة . . رائحة الحب مثل رائحة  
«الفورمالين» والأدوية الأخرى التى تزكم الأنوف . .»

وأخذ عادل - على الرغم من الإرهاق الذى ألمَّ به -  
يستعيد لقطات من لقاءاتهما معاً ، محاولاً أن يستشف ما  
وراء تصرفاتها وكلماتها . . إنه لم يزل يتذكر ذلك الكتاب  
الذى كانت تقرأ فيه ذات يوم ، قال لها :

- «ماذا تقرأين؟؟» .

- «قصة . .»

---

- «أوه.. هذا مضيعة للوقت يا فضيلة..».

- «إنه فن رفيع.. ألا تحب أن تقرأها؟؟».

ضحك في سخرية، وقال:

- «إنها مضيعة للوقت.. الروايات للمراهقين

والمراهقات.. ونحن كبارنا.. كبارنا يا فضيلة.. ويجب أن

نواجه الواقع بدلاً من الغرق في هذه الأوهام..».

- «أفهم من ذلك أنك لا تقرأ شيئاً في الأدب؟؟».

- «عشقي الأول كتب الجراحة..».

هو يتذكر أنها نظرت إليه في استغراب، حاول أن

يتجاهل نظرتها، واستطرد:

- «إنني لا أجد ما يستحق أن يقرأ في هذه الأيام.. حتى

الصحف لا أقرأ غير العناوين البارزة.. والواقع أنه لا

يهمني شيء.. هذا العالم كله عارٍ من الصدق إلا مجالات

العلم..».

- «هذه حياة جافة لا تطاق يا دكتور عادل».

---



كان يؤمن بقضية .. إيمانه راسخ لا يتزعزع ، فالأدب  
أوهام وشعارات ومخدرات ، والسياسة أكاذيب ووحشية ،  
والمرسح والسينما تجارة ، والأخلاق من نصيب المستضعفين  
والفقراء ، والعدالة هي القوة والبطش في أيدي المحفوظين  
من ذوى النفوذ ، كان يتكلم بشقة وطلاقة لا تدع مجالاً  
للسك في ثقته واقتناعه بما يقول ، لم تصدمها الحقيقة ،  
كانت متمالكة لأعصابها ، وخاصة أن في قوله بعض الحق ،  
على الرغم من نظراته السوداء لكل شيء ..

قالت في هدوء :

- «الحب؟؟» .

لم يتوقع منها هذا السؤال بالذات ، فقد عهدا متحفظة  
محتشمة ، لا تستخدم الكلمات الصريحات ذات الظلال  
والإيحاءات .

تمتم في ارتباك :

- «الحب؟؟» .

قالت :

---

- «نعم الحب .. هل هو من سمات الضعفاء، أم من سلعة التجار، أم في قائمة الشعارات؟

قهقه بصوت عال، وهمس في خبث:

- «أنت تعرفين، والحياة بدونه بالغة الصعوبة، وهو ضرورة نفسية وفسولوجية واجتماعية .. إنه كالطعام والماء والهواء .. أتشكين في ذلك؟؟».

قالت باسمه:

- «ذلك هو التعريف الطبى المادى للحب».

- «هل هناك تعريف آخر؟».

- «ألا تعرف؟؟».

- «أوه .. تعلمين أنى لا أؤمن بالرومانسيات ..».

- «لكنها جزء من صميم وجودنا .. لسنا مجرد لحم وعظام ودم ..».

وأدرك عادل- بعد أن انصرفت فضيلة- أنه لم يوفق فيما قال على الرغم من اقتناعه به، كان يؤنب نفسه، لماذا لا

---

يجاريها فى تصوراتها، ويشبع خيالاتها وأشواقها الروحية.. إنها امرأة فى عنفوان شبابها، وهو يردها مهما كان الثمن، إن زواجه منها حتمية من الحتميات التى يتحدث عنها فلاسفة السياسة، والاقتصاد، والمادية الجدلية، بصراحة يريد جسدها ومالها وتميزها الشخصى والاجتماعى، واللعنة بعد ذلك على كل المبادئ يميناً ويساراً.. إن الخداع فى مثل تلك الحالات لباقة.. فن.. تخطيط.. ليس هذا ضعفاً أو انحرافاً.. ماذا سيخسر لو قال لها ما تريد سماعه، وليس ما يعتقد أنه هو؟؟.

قال لها عندما قابلها فى المرة التالية :

- «الأرض للزارع..
- والمصنع للصانع..
- والبيت للساكن..
- والشجرة للطالع..
- وأنت يا فضيلة لى وحدى..».

ضحكت، وقالت:

- «أنت تمزج الحب بالسياسة..».

- «أنا أقرأ فلسفة الثورة، والميثاق، وخطب الرئيس..».

- «تقرأ إذن أشياء غير كتب الجراحة..».

- «كنت أمزح يا فضيلة.. أنا أقرأ الكثير، لكنى ناقم على الأوضاع.. أنت حبيب الوحيد..».

- «والجراحة؟؟».

- «أنت حياتي.. والحياة رحبة تشمل الوجود كله، والآمال والأحلام.. والعلم والفن..».

ابتسمت قائلة:

- «أنت في حالة جيدة اليوم».

كان في عجلة من أمره، وهو يخاف المستقبل، ويشك في الناس، وينظر لكل من حوله وما حوله نظرة عدا، الحقيقة الوحيدة التي يعرفها ويؤمن بها هي نفسه، قد يأتي

---

أحد الذئاب ويختطف منه فضيلة، القصر العيني يعج بالأساتذة والمدرسين والمعידين، وفيهم الكثيرون ممن يتفوقون عليه علماً وخلقاً وشكلاً، وفضيلة قوية الشخصية، والحجاب الذى تلبسه يحمل الالتزام والصدق، لقد حاول إقناعها بخلعه، فرفضت، لم يتضايق كثيراً؛ لأن تمسكها بالحجاب يدعو إلى الطمأنينة الكبيرة، فضلاً عن أنه لا يعنى انتماءها لاتجاه سياسى بعينه، لا ينكر أنها مسلمة مستتيرة.. هذا ما يعتقده.. لكن من يدرى؟؟ إنه لم يكتشف بعد عالمها الخاص، وليس بمقدوره أن يفعل، فليرض بما يشهده ويلمسه، والعملية الحسابية التى تداولها منذ زمن بعيد تؤكد له أنها هى الفرصة الوحيدة المناسبة له حق الآن، وبالتالي لا يصح أن تفلت الفرصة.

حينما يقوم بإجراء العملية الجراحية لمريض ينسى كل شئ إلا المبضع وأدوات الجراحة وخطوات العملية، كل التفاصيل مرسومة فى ذاكراته بدقة، ويده تتحرك بمهارة.. .  
عالمه هو ذلك الحيز الصغير، حيث العضلات، والأوردة والشرابين، والأحشاء، والأعصاب، والأغشية، ويصبح

المريض الراقد تحت تأثير التخدير مجرد شيء .. الإنسان ككيان شامل لا وجود له .. فهو يتعامل مع مادة .. وفي العيادة يعامل المرضى بفضاظة لافتة للنظر ، لكنهم يغفرون ذلك لما عرف عنه من كفاءة وموهبة ونجاح .

قال له أبوه ذات يوم : «لم نعد نملك قرشاً واحداً . . بعنا البهائم والحمار وأثاث البيت . . لم يبق إلا الأرض التي نزرعها ونأكل من خيراتها . . قد تسألني لماذا لا نبيعها ، أو نبيع جزءاً منها؟؟ هذا مستحيل يا عادل . . إنها ميراثك أنت وإخواتك ، وهي الشيء الوحيد الذي يجب أن يبقى . . وثلاثة أفدنة ليست بالشيء الكثير . . ذهبت لأقترض مبلغاً من عمك «الحاج بسيوني» لكنه اشترط أن نعقد قرانك على ابنته عزيزة . . وأنت لا تفكر في الزواج من فلاحه . . عالم بلا رحمة يا ولدي ، وأنت لم تزل في السنة الثالثة بكلية الطب . . هل أسرق يا عادل؟ أم أحمل بندقيتي وأقطع الطريق؟؟ لم يعد لي في الأمر حيلة . . سمعت أن وزارة الأوقاف تقدم عوناً للطلبة المعوزين ، لماذا لا تذهب يا ولدي وتحاول؟؟» .

---

كان أمراً شاقاً بالنسبة لعادل ، لكنه فى لحظة يأس وضياع قرر أن يذهب . . دخل المبنى الشامخ ، كان محرجاً فى أن يسأل ، لكنه كان يمضى فى طريقه مصراً على إكمال الشوط حتى النهاية ، وليكن ما يكون . . كان فى دوامة عاتية من الأفكار ، والذل يربك خطواته ، واصطدم عند منحنى الممر بإنسان . . هتف :

- «رشدى؟؟» .

- «عادل؟؟ ما الذى أتى بك إلى هنا؟؟» .

دارت الأرض بعادل ، ماتت الكلمات على شفثيه ، وكسا الشحوب وجهه الوسيم ، لكنه تمالك أعصابه ، وقال :

- «جئت لزيارة قريب موظف هنا . . أنت تعرف عائلتنا منتشرة فى كل مكان . .» .

- «هذا من حسن حظى» .

- «ماذا؟؟» .

- «أنت تعرف الحالة فى هذه الأيام ، والفقير ليس عيباً . .» .

- «لا أفهم...».

- «جئت بصراحة أطلب معونة...».

- «أية معونة؟؟».

- «هيا بنا إلى قريبك... إنه يعرف كل شيء...».

ومشى عادل إلى جواره على غير هدى، لم يعد بقادر على التماسك إنه يكاد ينهار... الدموع توشك أن تطفئ من عينه، إنه مأزق قاتل، وأخذ يتصرف في ارتباك، يدخل هذا المكتب ثم يخرج، ويسأل هنا وهناك، كان واضحاً أن عادل هذا غير عادل الذى يعرفه زميله «رشدى القصاص» فى الكلية، فكر عادل فى مخرج، لم يثب إلى ذهنه سوى دورة المياه... حسناً، ليستأذن ويذهب إليها، ويغلق على نفسه الباب، وينكمش فى داخلها وسط الروائح الكريهة حتى تهدأ أعصابه، ويلم شتات نفسه، وحينما خرج بدت آثار الدموع فى عينيه المحترقتين، قاسه رشدى بنظراته، وهز رأسه قائلاً وهو يمسك بذراعه:

- «لا تقسُ على نفسك هكذا...».



- «ماذا تعني؟» .

- «أعرف أن كبرياءك من النوع القاتل ، لكن ليس الأمر على هذا النحو من السوء . .» .

- «لا أفهمك . .» .

وصفحه رشدى بالحقيقة :

- «أنت مثلى جئت تطلب المعونة» .

دفعه فى عنف وغضب ، وصرخ :

- «اخرس . .» .

ابتسم رشدى القصاص ، وقال فى سخرية محيية :

- «البلد بلدنا . . والمال مالنا . . ولا ذنب لنا إن ولدنا فقراء . . اللهم أن نحقق الهدف . . وأنا معى بطاقة توصية بصراحة . . لقد أخفيت عنك الأمر فى البداية . . أما وأن الأمر كذلك فسوف أضيف اسمك إليها ، وليكن ما يكون . .» .

خفض عادل فتوح رأسه فى مهانة مريرة ، وقال :

---

- «بشرط» .
- «موافق مسبقاً» .
- «لا يصح أن يعرف أحد بذلك في الكلية» .
- «بالطبع يا عادل . . من الجنون أن نفصح أنفسنا . .» .
- «وإذا حدث قتلتك . .» .
- «مجنون . . ويمكنك أن تفعلها ببساطة . .» .
- وضحكا وتعانقا، وذهبا إلى الموظف المختص .
- كان الأمر يبدو عادياً، ودق قلب عادل من الخوف حينما قال الموظف :
- «لقد انتهى الموعد منذ أسبوع . .» .
- داهمهما همٌّ ثقيل ، قاسهما الموظف بنظراته ، وتمتم :
- «خذوا هذه الورقة واذهبوا إلى المكتب المجاور» .
- وفى طريقهما للمكتب الثانى قرأ عادل فتوح التعليق المكتوب :

- «هذان طالبان طيبان فاتهما القطار . . أرجو عمل  
اللازم نحو مساعدتهما . . مع الشكر . . توقيع» .

مر الأمر على خير ما يرام بسرعة مذهلة ، لكن الذى ضايق  
عادل هو استخراج بطاقة خاصة ملصق عليها صورته ، وبدون  
هذه البطاقة لا يستطيع صرف المبلغ الشهري المقرر . . كان المبلغ  
خمسة جنيهات . . قال رشدى القصاص مازحاً :

- «هدية السماء إلى الأرض . . .» .

لم يستطع عادل أن يذهب إلى الكلية فى اليوم التالى ،  
كان يجلس صامتاً دوغماً رغبة فى طعام أو نغو أو مذاكرة ،  
لكنه نفّض عنه الغم والكمد بإرادة صارمة مصطنعة ، وولى  
وجهه شطر الكلية ، الشيء الجديد الذى انتابه هو أنه لم يعد  
يرغب فى رؤية رشدى ، أصبح يكرهه كما يكره الفقر ،  
ووجه عمه الحاج بسيونى ، وابنته عزيزة . . لكن الحياة لا  
يصح أن تتوقف . .

ولم يكد يمضى أسبوع حتى جاء والده ، كانت المفاجأة  
أنه يحمل معه مبلغاً كبيراً من المال ، مائتى جنيه دفعه  
واحدة . . تتمم العجوز :

---

- «لقد بعث لعمك بضعة قرارات . . أمك وإخوتك  
أصروا على ذلك . . كان الجميع مستعدون للتضحية من  
أجلك حتى النهاية . .» .

طوق أباه بذراعيه وانفجر باكياً . . كان يبكي كما لم يبكي  
من قبل في حياته . . لقد أفرغ كل ما في كيانه من هموم  
وعذاب على كتفه ، وكان جسده ينتفض . . ثم قص على  
أبيه ما جرى في وزارة الأوقاف ، واستطرد :

- «يجب أن تسترجع الأرض . .» .

- «انتهى الأمر يا ولدي ووقعت عقد البيع . . ثم إنك  
في حاجة إلى كتب وملابس وإيجار مسكن . . أنت عندي  
أعلى من كل أرض العالم . . لو قالوا لي بع حياتك  
لفعلت . . من أجلك يا عادل . .» .

ومات أبوه قبل موسم حصاد القطن . .

يومها تمتم عادل :

- «لقد مات الحب . . فليمت الناس كلهم بعد  
ذلك . .» .

حين أصبح عادل فتوح نائباً بقسم الجراحة ، تدفقت  
ينابيع السعادة فى قلبه ، وشعر أنه على أعتاب المجد ، لقد  
كان تعيينه أمراً مفروغاً منه ، فهو أول الدفعة ، وعمله يشهد  
له بالاعتدار ، وانتظامه فى مباشرة العمل يزيد من الثقة فيه ،  
وطاعته لرؤسائه ، وتوقيره لهم بدا لافتاً للنظر ، فكان يحمل  
القهوة بنفسه لأستاذه ، ويتحمل منه أى نقد لاذع ، حتى  
اتهمه زملاؤه بالنفاق «ومسح الجوخ» كما يقولون ، لكنه لم  
يكن يرى فى ذلك أى عيب . . من علمنى حرفاً صرت له  
عبداً ، وأستاذه هو الوحيد الذى يضمن له النجاح فى  
الامتحانات . . نعم فى هذا المكان لا يهم أن تكون متمكناً  
من علمك ، فمعظم المعيدى كذلك ، وإنما المهم أن يرضى  
عنك الأستاذ ، ويوافق على نجاحك . . إن الأساتذة فى

العادة يجتمعون قبل الامتحان فى القسم ، ثم يقررون أسماء الناجحين ، وعددهم . . فإذا كان مصيره بيد الأستاذ ، فماذا يفعل غير ذلك؟؟ «فليقولوا ما شاءوا» لكنهم يمارون ويكذبون ويدعون العصمة والشرق والكرامة ، وهم من هذا كله أخلياء . . الحق يدحرهم ، والغيط يأكل قلوبهم . . سوف أحقق أهدافى مهما كان الثمن ، ولو خضت فى مستنقعات الرذيلة ، لست وحدى الذى يضع المبادئ ، والنظام كله يقوم على الهوى والمنفعة ، وأنا ابن زمانى ومجتمعى . . ارفع رأسك يا أختى . . فقد مضى عهد الاستعباد . . لقد خلقت فيكم الحرية . . وخلقت فيكم الكرامة . . صدق الزعيم . . من قال إن احترام الأساتذة مخلٌ بالشرف والكرامة؟؟ الأستاذ يغازل الحكيمة نادية . . وأنا مالى؟؟ إلى جهنم وبئس القرار!! هى فى مثل سن ابنته . . إنه غارق صباح مساء فى طوفان العمل . . وزوجته تعاني من أعراض سن اليأس . . وهو يرفه عن نفسه . . من حقه أن ينال قدرًا من الترفيه ، ويتخلص من مشاعر الملل والإحباط . . ونادية ورده متفتحة . . تضج بالحياة والأنوثة

---

والبهجة . . الرجل معذور . . لقد سافرت معه ذات مرة إلى مؤتمر عالمي في «فيينا»، وما دخلني أنا؟؟ هل لأنني حجزت التذاكر ، وأوصلتهما إلى المطار؟؟ مجرد مجاملة!! هل أقول الحقيقة؟؟ لقد غازلتني الملعونة نادية ، حاولت إيقاعى أنا الآخر فى شباكها ، قلت لها :

- «أنا أكره الخيانة» .

- «خيانة من؟؟» .

- «الأستاذ . .» .

ضحكت فى استهتار :

- «إنه ليس زوجى» .

- «لكنه أستاذى» .

- «ولأنه أستاذك سوف تنفذ رغباتى» .

- «مستحيل . .» .

- «كلمة واحدة منى تجعله يطردك من القسم . .  
ويطاردك فى كل مكان . . ولن تنجح أبداً . .» .

- «لماذا كل هذا؟» .

- «لأنى لا أغفر للذين يعصون أوامرى . . ماذا تظنه  
فاعلاً بك إذا زعمت أنك تغازلنى وتطاردنى؟؟» .

- «كذب . . كذب . .» .

- «تأدب . . إنها مجرد سلاح . . كلهم يكذبون . . انظر  
حولك . . هذه الكيانات كلاها قائمة على الكذب . .  
اسمع . . سأنتظرك الليلة فى شقتى الخاصة . . هو الذى  
استأجرها لى . .» .

هذه الملعونة لها عيان تذييان كل مقاومة ، نبرات صوتها  
تبعث الحمى فى جسدى . . قالت لى :

- «ادخل جتنى . . وحذار أن تسأل عن شىء . .» يا  
ويلى . . أنا أتحرك كالمسحور . . وبدا خيال فضيلة ملفعاً  
بالغيوم . . وأكدت لى نادية أننى سوف أنجح فى أول



امتحان . . وهذا أمر نادر الحدوث ، لو صدقت لصعدت بأسرع من البرق ، ولأصبحت فى خلال سنوات قليلة مدرساً . . ثم أستاذاً مساعداً . . ثم أستاذاً . . يا لها من أحلام وردية رائعة . . وقالت لى نادية : ما كان لى أن أسعد بهذا العجوز المتصابى . . لكنى أعطف عليه . . أودى مهمة ثقيلة . . وأستفيد . . إن أردت الصراحة فقد اشترى لى هذه الشقة ، وغمرنى بالهدايا والمجوهرات . . إن كل ما أخذته منه يقل عن دخل شهر واحد لعيادته . . كانت نادية تدخن . . أهدتنى ولاعة ذهبية . . وأنا لا أدخن . . ولكن فرحت بها . . كطفل أمسك بلعبة ظريفة . . ولدى نادية ذقت الخمر لأول مرة . . مجرد تجربة . . واستمرت التجربة . . أين أنت يا أبى؟؟ أترك ساخطاً على فى قبرك؟؟ لكن من قال : إن الموتى يتألمون أو يشعرون؟؟» .

فترت علاقة عادل بالدكتورة فضيلة ، ولعله كان يحاول الهرب منها ، إن هذه الفتاة الصامدة المحجبة قادرة على بث الرعب فى نفسه ، يخيل إليه أحياناً أنها تقرأ صفحات نفسه ، وتتغلغل إلى أعماقه ، وتكشف نواياه ، لقد خانها . .

هذا صحيح ، لكنه لم يزل مصراً على الزواج منها ، إن الخطئة القديمة لم ولن تتغير ، وهو فى هذه الأوقات الحرجة لا يستطيع الإفلات من إसार نادية ، لو فكر فى ذلك لدمرته تدميراً . . وخيل إلى فضيلة أن شيئاً لا تعرفه يجرى فى الخفاء ، قلبها يحدثها بذلك ، إن رياح التغيير تعصف بعادل ، لقد قلت لقاءاته معها ، أصاب علاقتها قدر من البرود لا يخفى على مثلها ، تضايقت كثيراً فى البداية ، ومنعها كبرياؤها من مفاتحته فى الأمر ، إنها لم تزل على البر كما يقولون ، ولم تلق بنفسها بعد فى خضم الأمواج ، لكن الأمر يحتاج إلى حسم . . بالأمس كانت تتمنع ، لكنها اليوم تتمنى أيفاتها فى موضوع الزواج مرة أخرى ، وهو لا يفعل ، هذه الحيرة القاتلة لا تعنى سوى أنها تحبه . . أجل تحبه على الرغم من عيوبه وتمرده ، وعلى الرغم من أفكاره التى تبدو شاذة فى بعض الأحيان ، كانت واثقة من نفسها ، وتعتقد أنها قادرة على إحداث التغيير المطلوب له . . والحب يصنع الكثير . .

التقى بها فوق الكوبرى الذى يربط القصر العينى القديم بالقصر الجديد ، وهتف فى مرح مصطنع :

---

- «هالو فضيلة!! أين أنت؟؟ لقد بحثت عنك فى كل مكان لأحمل إليك تهانى القلبية . . لم أعلم إلا أمس أنك عينت معيدة فى قسم «الباثولوجيا» . . معنى ذلك أننا سنبقى معاً إلى الأبد فى القصر العينى . .»

ابتسمت فى تحفظ ، وقالت :

- «إلى الأبد؟؟» .

- «أتشكين فى ذلك؟؟» .

قاسته بنظراتها المتفحصة الحزينة ، وتمتمت :

- «أين أنت؟؟» .

- «تعرفين طبيعة العمل فى الجراحة . .» .

- «العمل فى الجراحة أخف من قسم الطوارئ . .» .

- «قد يكون لك العذر فى هذا التصور لو لم تكونى طبيبة» .

أطرقت برأسها لحظات وهى تركز على أسنانها ، ثم رفعت رأسها قائلة فى جدية :

- «ماذا جرى لك؟؟».

احتقن وجهه حرجاً، لكنه سرعان ما تماسك، وقال:

- «لم يبق على الامتحان سوى أيام...».

- «أعرف...».

- «لكنك لا تعرفين أن النجاح يتبعه ارتباطنا إلى

الأبد...».

كانت تميل إلى تصديقه، فهي تعرف أنه لو كان عازماً على الفرار لقال وفعل، وعندما يتحدث عن الارتباط، فهو يعنى ما يقول، وخطت في طريقها إلى قسم «الباثولوجيا»، وسار إلى جوارها ليوصلها إلى هناك من باب المجاملة، ساورته المخاوف والشكوك، ماذا يحدث لو رآته «نادية» معها؟؟ إن الامتحانات على الأبواب، وعلاقته بالأستاذ على ما يرام، بل إن الأستاذ يثنى عليه صراحة، وهمس في أذنه مؤكداً له النجاح من أول مرة... لو غضبت عليه نادية في هذه الأوقات العصبية لضاع كل شيء... كان يتلفت يمنة ويسرة... ضحكت فضيلة قائلة:

- «ما بك؟؟ إنك تتلفت كاللص...».

تجاوب معها بضحكات مصطنعة باهتة:

- «أتخاف أن يراك أحد معي؟؟ لم تعد صغيراً... ولا أنا...».

أردف قائلاً:

- «لقد كبرنا على الخوف».

غمزت قائلة:

- «من خاف سلم».

- «العلم هو الحرية إذا لم نكن أحراراً، فلا معنى للعلم الذي تحمله رؤوسنا...».

قالت وهي تضع يديها في جيبي المعطف الأبيض:

- «إنني لا أحب الفلسفة».

- «لماذا؟؟».

- «لأنها مجرد كلمات».

- «وتعبر عن أفكار عظيمة . .» .

- «العظمة فى العمل . .» .

- «العلم والعمل عندى شىء واحد . .» .

- «نعم العلم . . أما الفلسفة فلا . .» .

- «من قال ذلك؟؟» .

- «أنا . .» .

- «تفلسفين دون أن تشعري . .» .

كانا قد وصلا قسم الباثولوجيا، وتوقفت فى مواجهته  
قائلة فى هدوء :

- «أريد أن أراك الليلة . .» .

قال وقلبه يدق :

- «الليلة بالذات؟؟» .

- «نعم . .» .

- «أين؟؟» .

- «فى كازينو هافانا القريب من هنا» .

وأشارت ناحية الكازينو ، ثم حيثه ، وقالت وهى  
تنصرف :

- «الساعة الثامنة مساء . . لا تنس . .» .

بقى جامداً فى موقفه لحظات ، الحيرة تأخذ بتلايبيه ،  
والقلق يعصف به عصفاً ، إن ناديه هى الأخرى تنتظره ، وفى  
الموعد نفسه ، أية كارثة تلك؟؟ تتم فى حسرة : «نادية . .  
آه . . روحى فى يدها . .» إنه يشعر برغبة عارمة فى كأس  
تطفى هواجسه الملتهبة ، ويريد أن يتخفف من أثقال مبهمة فى  
جسده ، وفى الوقت نفسه يبدو أن عدم ذهابه إلى موعد  
فضيلة سيثير الغضب والمشاكل والشبهات . . أدار وجهه  
ومضى فى طريقه . . إنه لا يعرف على وجه اليقين ماذا  
يفعل ، لكنه لا بد أن يعرف . . وضحك فى سخرية بشعة ،  
وتتم : «وهل يحتاج الأمر إلى تفكير أو حيرة . . ناديه  
طبعاً . . لو لم أذهب -والامتحانات قد قربت- لكنت كمن  
يفسد «الطبخة» بسبب قرش ملح . . وفضيلة طيبة فعلاً ،

ومن السهل الاعتذار، وانتحال بعض القصص الخالية  
المثيرة.. . وسوف تنسى المسكينة، وتبادر بتجديد موعد  
آخر.. . وجل من لا يسهو.. .».

كان يشعر بشيء من تأنيب الضمير حيال هذا الموقف،  
لكنه لم يدع نفسه نهباً لمزيد من الكرب، وعندما يتخذ  
قراره لا يصح أن ينظر وراءه.. . إلى الأمام دائماً.. . عندما  
ينظر خلفه يشعر بضيق هائل، وماذا في الماضي غير الفقر،  
والدموع، وذل الحاجة، وليالى المعاناة الطويلة؟؟ إنه  
مطمئن إلى أن فضيلة لن تفلت من يده، لقد وقعت في  
شباكه وانتهى الأمر، لكن لا يصح أن تذهب فضيلة إلى  
كازينو هافانا، وتجلس وحيدة تنتظر على أحر من الجمر،  
إنه شيء ينال من كبريائها ووضعها كأنثى، فلماذا لا  
يكلمها في التليفون ويعتذر.. . هذا أفضل وأكرم، يجب  
أن يكون مهذباً لبقاً، ومن الضروري أن يتجنب الأخطاء  
التي تؤلمها.

حينما دخل قسم الجراحة وجدها تمر مرفوعة الرأس،  
واثقة الخطأ «تمشى ملكاً» كما تقول أم كلثوم فى أغنياتها



«الأطلال»، ما أقل المقاطع الغنائية التى يحفظها على الرغم منه . . «من ينظر إليك يا نادية وأنت فى هذا المجد والصولجان يشعر أنك أميرة من أميرات البيت المالك قبل انقلاب يوليو الشهير . . الجمال والأنفة والثقة كلها أنت . . . يا ملاك الرحمة الجميل الداعر . . ما معنى ذلك؟ ألا يمكن أن يظهر كل شىء فى هذا الوجود على حقيقته وصراحته؟ أم أن طبيعة الحياة الغموض والكذب والأقنعة الزائفة؟ . . هذا مسرح كبير كما يقول يوسف وهبى . . هذه الآثمة ماعون من فسوق وخمر وبروتينات . . هى تشتهى اللحم . . وتغنى فى اللذة . . وتذوب فى أطايب الحياة . . لو أبدلنا كلمات ملاك الرحمة وقلوبناها لأصبحت شيطان القسوة . . لكن من يصدق إن هذا الوجه الفاتن المثير يخفى وراء ذلك الدنس كله . . المصيبة أننى أشتهى هذا الكيان كله برغم ما فيه . . لماذا يحدث ذلك؟؟ أيها الناس أجيئونى . . لماذا؟؟ . .»

همست وهى تصافحه :

- «جئت فى وقتك . .»

---

- «خيرًا . . .» .

- «باب الجنة مغلق اليوم» .

أدرك ما تعنيه ، وطرب دون أن يظهر عليه ما ينبى عن ذلك ، وتمتم :

- «مغلق للتحسينات؟؟» .

ضحكت فى شيء من الضيق ، وقالت :

- «ومتى احتاجت جتنى إلى تحسينات؟؟» .

قال فى خبث :

- «الآن أدرك مدى مأساة آدم وحواء . . .» .

قالت فى همس :

- «لم تسألنى عن السبب» .

- «وهل أجرؤ على ذلك؟» .

تلقت حولها ، وقالت وهى تجر عادل إلى مكتبها :

- «سيادة البك الكبير سيشربنى الليلة . . .» .

ابتسم قائلاً:

- «إنه لشرف عظيم . . .» .
- «أتسخر مني؟؟ أم هي الشماتة؟؟ لم أعد أطيعه» .
- «الصبر طيب يا بنت الناس» .
- سددت إليه نظرات نافذة، وقالت:
- «أجل . . حتى ينتهي الامتحان . . إننى أعرفك» .
- «تسيئين الظن بى . . .» .
- «هل نسيت أنك كنت تتمنع ، ولولا التهديد لـ . . .» .
- قاطعها قائلاً:
- «الامر اليوم مختلف تماماً» .
- «لماذا؟؟» .
- «لقد عرفت الجنة . . .» .
- «أيها الملعون . . .» .
- «وشئامك كالسكر . . .» .

أمسكت بيده ، وضغطت عليها قائلة :

- «ولهذا سأحضر لك أسئلة الامتحان . . .» .

- «غير معقول . . .» .

- «إن نادية قادرة على فعل ما تريد . . .» .

- «دعيني أقبل يدك الجميلة . . .» .

- «ليس الآن . . . هذا مكان عمل يا مجنون» .

قالت له : «إن حياتها السرية مع الأستاذ راكدة مملة ، وإن  
مجيئته خفف عنها الكثير من سخافات الأستاذ وتصايبه ،  
ولولا ذلك لانفجرت ودمرت معها كل شيء . . .» ووجودك  
أنقذني من هول الفراغ القاتل الذي سجت في عالمه . . أنت  
لا تعرف كم أحبك ! ! وإذا فكرت يوماً في هجرى ،  
فسأدفنك حياً ، أفهم . . إن معظم الرجال هنا على استعداد  
للركوع أمامي . . لعبهم يسيل كالكلاب . . أقرأ في عيونهم  
النهم . . أتعرف؟؟ ذئاب ، دعنى أصارحك القول ، هناك  
قلة تأبّت على ، ورفضت إغرائى . . وأنا أحترمهم ، هناك

من انتقمتم منهم . . لا أدري لماذا هذا التناقض فى  
التصرف . . وأنت بالذات إذا لم تكن قد لبيت دعوتى  
لقضيت عليك . . أنت منحط مثلى ، والتمنع فى هذه الحالة  
يستفزنى . . » .

كان عادل يضحك فى بلاهة ، ويقول :

- « النساء لا يحاسبن على عنف مشاعرهن . . » .

غابت الشمس ، تطلع من نافذة حجرته إلى النيل  
العملاق الذى يمتد فى شموخ ، تمنى أن يخلع ملابسه ،  
ويشب إلى النهر ، ويعانق الأمواج ، ويشرب المياه العذبة ،  
ويسبح إلى ما لا نهاية . .



فضيلة تخطت الخامسة والعشرين ، كانت أصغر البنين والبنات ، أختها رندة خريجة الآداب مدرسة إنجليزى ، متزوجة من ضابط بالجيش برتبة مقدم ، وسميرة صيدلانية ، وتزوجت من طبيب نسائى وولادة بمستشفى الجلاء ، وأخوها سعد صحفى بدار أخبار اليوم تزوج هو الآخر من صحفية زميلة . . أصبح لوالدها الشيخ علام العيسوى - العالم الدينى المعروف - سبعة من الأحفاد بنين وبنات . . أما أمها فقد اختارها الله إلى جواره منذ أربع سنوات . . كانت تقول وهى تلفظ أنفاسها : «تزوجوا جميعاً على يدي إلا أنت يا فضيلة . . يا آخر العنقود ، لكم تمنيت أن أعيش حتى أراك فى «بيت العدل» ، وتمم أبوها عندئذ وهو يحرك حبات مسبحة فى توتر : «إنها إرادة الله . . لا راد لقضائه ،

ولا معقب لحكمه»، وبيت الشيخ علام واسع، فيه أكثر من عشر غرف وحديقة مهمة بها أشجار مانجو وليمون وجوافة ونخيل... والجو هادئ في أطراف حي «عين شمس»، والبيت القديم يقبع منفرداً كقاعة... أقرب بيت إليه يبعد حوالى خمسين متراً... وهو من ثلاثة طوابق... وآخر خط الأوتوبيس قبل مائتى متر... ونسمات الشتاء باردة حلوة تنعش الروح، ولولا روماتيزم المفاصل لكان الشيخ علام العيسوى واثباً في رحلاته الخلوية القصيرة بين الحقول، كما كان يحدث في مثل هذا الوقت من كل عام... لكنه الآن مضطر للركون إلى الشرفة المشمسة في الدور الثانى، إنه يتطلع إلى الآفاق الممتدة إلى بعيد... هو فى أواخر العقد الثامن... يا سبحان الله... ثمان وسبعون خريفاً مرت... عمر عريض طويل... ولادة قبل أن ييزغ فجر القرن العشرين... وكل شىء يتحول بسرعة البرق... الناس، والبنائات، ووسائل المواصلات، والأخلاق، والأوضاع الاجتماعية... من أين تدفق هذا السيل الجارف من البشر؟؟ الشوارع والأزقة تغصُّ بالأطفال والنساء والرجال... شراء

وبيع.. أصبح الشباب أكثر جرأة وانحرافاً.. مات الملك.. يحيا الملك.. أصبح الصبية قادرين على اتخاذ قرارات خطيرة دون تحسب للنتائج.. لم يكن له رأى يذكر فى زواج أى من أولاده.. والأحفاد الصغار يماذحونه، ويفعلون به الأفاعيل.. «انظر هذا الكتاب يا جدى» ويتناول الكتاب الصغير، ويحاول أن يتصفحه، فإذا بالكهرباء تسرى فى يده، وتهزه هزاً، فيقذف بالكتاب فى خوف ويهتف «ملاعين»، ويضج الأطفال بالضحك، ثم يشرحون له الخدعة، وكيف أن الكتاب فيه كهرباء، بسبب بطارية مخبأة فيه.. ومرة أخرى يقدمون له قداحة كى يشعل السيجارة فإذا بسيل من الرغوة البيضاء يتدفق تشبه رغوة الصابون.. ويصيح الأطفال فى سعادة ومرح، ويهتف مرة أخرى «ملاعين»، لم يعد يجد الهدوء والسكينة إلا فى المسجد القريب الذى يذهب إليه متوكئاً على عصاه.. هناك يشم رائحة الجنة.. الصحف سلوه وقت الفراغ.. خاصة صفحات النعى، لقد ذهب الكرام وعمالقة العصر.. ذهب الشيخ المراغى وعبد المجيد سليم



والخضر حسين وشلتوت ودراز . . آه «يا دنيا غرى غرى،  
أعلى تعودت، أم إلى تشوقت؟؟ لقد بايتك ثلاثاً لا رجعة  
فيها . . آه من قلة الزاد . . وبعد السفر ووحشة الطريق!!  
رحم الله الإمام على - صاحب هذه الكلمات - وكرم  
وجهه . . حين توشك الشمس على الأفوال تببل عيناى  
بالدموع . . كل شيء إلى زوال . . ثم يولد العالم من  
جديد . نحن زرع الله فى الأرض . . تثبت . . ونخضر . .  
وتمرور فينا طاقة الحياة وتثمر . . ثم نذبل . . ويأتى منجل  
الحصاد» . . ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ  
مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ  
الرياحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ  
زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا  
وَحَيْرٌ أَمَلًا ﴿ [الكهف: ٤٥، ٤٦]، وفى كل فجر يصحو  
الشيخ علام، ويصلى، ثم يشرب الشاي وكوباً من الحليب  
ويقرأ القرآن . . ويهرول الجميع إلى أعمالهم حتى الأطفال  
يذهبون إلى المدارس ودار رياض الأطفال، ولا يبقى إلا  
الخدم والرُّضّع، وبعد الظهر يحتشد الجميع حول مائدة

الطعام . . لا . . موائد الطعام . . ويبقى على مائدة الشيخ فضيلة وأطفال أختيها وأخيها . . إنها حياة طيبة لا شك ، الحمد لله أنهم لم يرسلوا بالشيخ إلى دار للمسنين ، ومن نعمة الله أنه ما زال في وضوح صحى طيب ، على الرغم من آلام الروماتزم . .

- «أتتوين الخروج هذا المساء يا فضيلة؟؟» .

ردت وهى تنسق ملابسها باهتمام :

- «أنت تعرف مسئولياتى يا أبى . . » .

لم تعد فى حاجة لأن يوجهها ، فهى عاقلة وناضجة ، ومرت بتجربة المراهقة بسلام ، هذا من فضل الله . . لم يستطرد فى مناقشتها ، واكتفى بأن دعا لها بالتوفيق والسلامة . . حينما أصبحت فضيلة فى الشارع المترب الطويل وحدها كانت تفكر فى عادل فتوح . . تفكر فى مصيرها ، بالأمس كان يتقرب منها ، ويتمسح فيها ، فتزداد عزوفاً وأنفة ، واليوم يغيب عنها ، فيعذبها الأرق ، ويعصف بها الضيق ، ثم تستجدى منه موعداً فى كازينو هافانا . . أترأه يأتى فى الموعد؟؟ إنها قلقلة ، وتعمل ألف حساب

لمجيئته ، وهى التى طالما تهربت منه ، وقدمت الاعتذار تلو الاعتذار . . لماذا هذا التنافض ؟ إنها تحاول تجاهل ذلك ، فهو يحبها ، وهى تريد أن تتزوجه ، أسقطت - بسبب عواطفها - الكثير من المواصفات التى وضعتها قبل ذلك لشريك حياته ، إن عالم المثال لا وجود له على الأرض ، فالكمال لله وحده ، كفى المرء نبلاً أن تعد معاييه ، كما يقول الشاعر القديم . . على الرغم من عنفه وتمرده وتطرفه ، إلا أنها تنظر إلى وجهه فتشعر أنه وجه طفل مشاغب «إلى يا طفلى الحبيب . . سأعرف كيف أهدئ ثائرتك ، وأملأ فمك بالحلوى ، ويديك باللعب ، وأحكى لك حكايات ألف ليلة وليلة . . إن شهرزاد استطاعت أن تغسل يدي مليكها الملطختين بالدم ، وأن تسكب الحب والحنان فى قلبه ، وعلمته كيف يبكى ويتسم ، وتورق فى روحه مشاعر الإنسان النبيل» .

كانت فضيلة موقفه أنها تحبه ، حاولت أن تحلل مشاعرها بطريقة حيادية فلم تستطع ، لم تخدع نفسها ، إن عواطفها أقوى من المنطق والحسابات ، لو كان عادل مجرد حالة لما استعصى عليها تحديد معاييه وأخطائه ، لقد انفتح باب قلبها

---

له مؤذنًا بالدخول ، ومن الصعب أن تغلق باب القلب الذى يعمل دون إرادة ليل نهار .

كان رواد الكازينو قليلين ، ربما بسبب البرد ، ورأته من بعيد جالسًا ينتظر ، استقبلها فى فرح ظاهر ، طربت لهذا اللقاء الحى النابض ، فى داخله سياط من ندم ، كلما أوغل فى الإثم مع نادية ، ازداد حبًا لفضيلة ، الزواج من امرأة فاضلة يسعد القلب ، ويبهج النفس .

قالت له :

- «ماذا تشعر عندما تكون معي؟؟» .

هتف فى حماسة :

- «بالنور يغمرنى . . بالسكينة والراحة . .» .

ضحكت قائلة :

- «سأنقص عليك حياتك؟» .

- «يا ليت . .» .

وتطلع إلى النيل ، وحزم الضوء تبين عن بعض جنبات صفحته العريضة ، وقال :

- «متى أصل شاطئ الأمان؟؟» .

خففت رأسها قائلة :

- «تستطيع أن تفعل» .

- «كيف؟؟» .

- «تعديل من وضع الشراع ، وتحرك المجدافين في الاتجاه الصحيح ، وهكذا تصل إلى الشاطئ...» .

حاول أن يمسك بيدها ، فأبعدتها برفق ، وقال :

- «تعنين أنك...» .

- «معدل ذكاؤك كبير ، ألم تفهم بعد؟» .

غاب ببصره إلى بعيد ، الكأس والدخان وامرأة عابثة هناك ، ودنيا من خدر ولهو وخطيئة . . كيف تفعل ذلك يا ابن فتوح الطيب الفقير؟؟ أهى غيبوبة طارئة من صنع شيطان مريد؟؟

قال لها :

- «يخيل إلى أنك أعظم إنسانة في الوجود» .

أرادت أن تستمر في حوارها الأول، فسأته:

- «هل فهمت؟؟».

طوقها بنظراته الحانية، وقال:

- «بعد الامتحان سأفتح أباك».

- «قل إن شاء الله..».

- «إن شاء الله».

نادية الملعونة تطارده بذكرياتها الوقحة، هي الآن بين

أحضان الأستاذ الكبير.. تعساً لها.. قال دون وعى:

- «بعض المرضى يشتهون الطعام الذى يقتلهم.. وبرغم

تحذير الأطباء فهم يسرقونه.. ما معنى ذلك؟؟».

دهشت لما يقول، لم تجد صلة بين ما كانا يتحدثون فيه

وبين الكلام الذى نطق به.. ردت ضاحكة:

- «معناه أنك جائع.. هل أطلب لك ساندوتشاً؟؟».

أمسك بيدها على حين غرة، وتشبث بها قائلاً:

- «أكاد أموت من الجوع . . تعرفين أن الطعام إحدى  
ملذاتي الكبرى، هل تجيدين الطهي، أم أنك مثل باقي  
الطيبات؟؟» .

وأخذت تحدّثه عن قسم الباثولوجيا والأساتذة  
والزملاء، ومدى سعادتها بالعمل في هذا المجال، وأخذ هو  
الآخر يتكلم بعشق عن الجراحة، والعمليات الكبيرة التي  
يتمها بكفاءة عالية . . لكن طيف نادية يطل عليه من جديد،  
فيصرخ فجأة:

- «نصيحة يا فضيلة . . احذري الأساتذة» .

- «ماذا تعني؟؟» .

- «أنت جميلة . . وهم ذئاب» .

فهمت ما يرمى إليه، وضحكت في براءة، ثم قالت:

- «ليس الأساتذة وحدهم . .» .

- «كيف؟؟» .

- «الزملاء أيضاً . .» .

---

- «هل ضايقتك أحد؟» .

- «ليس لهذه الدرجة .. أحدهم فاتحنى فى أمر الزواج منى» .

هب واقفاً :

- «مَنْ هذا المأفون؟؟» .

- «زميل اسمه رشدى القصاص ..» .

اربدَّ وجهه ، وبدا الجنون فى عينيه ، وقال بصوت كالفحيح :

- «سألته درساً لن ينساه ..» .

أذهلها غضبه الصارخ ، وقالت :

- «ماذا جرى لك؟؟ إنه موضوع تافه ، وقد أفهمته بأدب أننى مرتبطة .. وانتهى كل شىء ، ثم لا تنس أنه تتلمذ عند والدى فى ثقافته الدينية ..» .

- «هذا الجبان لا يجد ما يأكله ، إنه يعيش على الإحسان والصدقات .. سأعرف كيف أريه ..» .

---



أخذت تهدي من روعه وتطمثنه، ورجته ألا يتدخل، فهي كفيلة برد مثل هذه التصرفات، وبعد أن تلاشى غضبه عاهدها أن لا تكلمه بتاتاً، وبذلك يستطيع أن ينسى الموضوع تماماً. . كانت في الواقع سعيدة بما حدث، إن ذلك ليس له سوى معنى واحد، وهو أنه يحبها ويغار عليها. . تلك تصرفات عاشق مجنون، وهي ترحب بهذا النوع من الجنون.

كان يلتهم الساندوتش، ويرتشف الشاي الساخن، وهي ترمقه في حب. . «بلغنى أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد أن. . وأن. . وأن» خواطر تدور في ذهنها عن الرجال الأطفال، وعن سيف الملك، وأعناق النساء الجميلات الحزينات، وعن عالم الخرافات والسحر والحب والمكائد. .

- «وعاد إلى سكن الأطباء وهو يفكر في فضيلة. . والشبكة والزواج والامتحان والأستاذ. . ورشدى القصاص. . ونادية. . العطر العجري الذى يورثه الخوف والدوار والعذاب. . وابتلع قرصين من الفاليوم. . ونام. .



حينما علم الشيخ علام العيسوى بأن ابنته فضيلة تبدى ميلاً للزواج من زميلها الدكتور عادل فتوح، فكر بضع لحظات، ثم قال فى هدوء:

- «أعلم أنها مسألة مصيرية، ثم إن الفقر ليس عيباً، وهذا الشاب يمتلك من الميزات والمؤهلات - حسب قولك - ما يجعله زوجاً مناسباً. . وأنت فى حالة من الرشد والعلم والخبرة تجعلك قادرة على الاختيار الصحيح، والقرار المناسب، وتحمل المسؤولية. . ومن ثم فإن رأى رأيك. . .»

لكن طبيب النساء والولادة زوج سميرة الصيدلانية وأخت فضيلة، كان له رأى آخر، فهو لا يجبذ أن يتزوج

طبيب من طيبة ؛ لأن العمل يستغرقهما معاً ، فيتهدد مستقبل الأطفال ، كما أنه يحرم الزوجين من الاستمتاع بجمال الحياة . . فالطب عمل دائب فى الصباح والمساء ، ولا وجود للنوم المتصل ، أو النزهة الكاملة فى حياة من يمارس هذه المهنة ، وإذا كان لا بد من زواج طبيب وطبيبة ، فعلى الأقل يجب أن تعمل الزوجة لفترة واحدة . . إما العمل صباحاً فى الحكومة ، وإما الاكتفاء بالعمل مساء فى العيادة الخاصة . . فى حين نقدم زوج أختها رنده المقدم بالجيش ، وقال :

- «إذا كنت يا دكتورة فضيلة تحبينه ، فاضربى عرض الحائط بكل التحفظات والمحاذير . . الحب فوق كل شىء . .» .

أما أخوها الوحيد الصحفى سعد ، فقد تدخل قائلاً :

- «التحرى واجب ، فلا يصح أن تتزوج أختنا من رجل مجهول الهوية حتى ولو كان عميداً لكلية الطب أو وزيراً ، إن طالب الزواج فى البداية يتظاهر بكل المبادئ والأخلاق النبيلة فى علاقاته المراتية ، فيخيل إلى خطيبته وأهلها أنه

ملاك طاهر.. مهذب.. رقيق.. مخلص.. وفي أصيل،  
فلذا ماتم الأمر، وضم العروسين بيت واحد، وتعرّت  
الحقيقة، وذهب التمثيل والتكلف، وكشف العريس عن  
أنياب الغدر والصفافة.. عندئذ تبدأ المشاكل، ويحل  
الشقاء والتعاسة لا قدر الله.. ولهذا، فلا بد أن تكلف  
شخصاً كفواً بالتحري عن عادل هذا، وعلاقاته وأسرتة،  
وآرائه الدينية والسياسية وسلوكياته.. وليس في ذلك  
افتئات أو تجنّ عليه.. وأنا لى صديق «مخبر صحفى»  
بوكالة أنباء الشرق الأوسط يستطيع أن يحصل على أدق  
التفاصيل.. إنه داهية..».

لم تترخ فضيلة لرأى أخيها الصحفى سعد، ولعلها  
خافت أن تكشف لها التحريات عن بعض الأمور المعوقة  
للزواج، إنها تحبه، والحب الحقيقى علاج لكثير من جنوح  
الأزواج وتطرفهم وغيونهم.. ولهذا قالت لسعد:

- «ألا يكفى ما تعاينه الأمة من المخابرات وطغيانها؟؟  
إن كثرة التحريات والمراقبة هى قرين عدم الثقة بالنفس

---

وبالناس، ونحن فى حالة زواج، ولسنا فى حالة تشكيل جهاز سياسى...».

رد سعد ببساطة:

- «التحريات فى الزواج أمر طبيعى تأخذه كافة الأسر المتحفظة التى تخاف على سمعتها، ومستقبل أولادها... ولا أرى فى ذلك أى عيب».

تضايق سعد من تساهل شقيقته، حياته فى الصحافة علمته الكثير، الدار الصحفية التى يعمل فيها ممتلئة بالدسائس والمؤامرات، كل واحد يريد أن يصعد على جثمان زميله، إنها غابة تنهش فيها الأعراض، وتلفق التهم، وتسرى الشائعات المغرضة، وكتبه التقارير فى كل مكان، وهناك أفراد يصعدون بسرعة البرق، إما لصلة قرابة بمسئول كبير، أو لنشاطهم المكثف فى الإبلاغ عن ما يعتقدونه انحرافاً، قد يجاز مثلاً مقال من المقالات، لكن الأوامر تأتى من أعلى... من خارج الصحيفة، وتفاجئ رئيس التحرير «عندك مقال عن كذا وكذا، باسم الصحفى

---

أو الكاتب فلان . لا تصرح بنشرة . . » ، ويضرب رئيس التحرير كفاً بكف ، إن المقال ليس فيه ما يسيء ، وكاتبه رجل نظيف الماضي والحاضر ، لكن عليه أن يطيع . . ليس هذا فحسب ، إن عشرات . . بل مئات التصريحات الرسمية تعج بالكذب ، وتمتلى بالإنجازات والبطولات الزائفة ، والخداع يصنع كل شيء . . والكلمات والصور والتحقيقات الصحفية فقدت معانها . .

صرخ سعد فى حدة :

- «لن تتزوج أختى من رجل لا نعرفه . . » .

قال المقدم زوج رندة :

- «إن لى صديقاً فى المخابرات العامة . . » .

هتفت فضيلة :

- «ماذا تقولون؟؟ إن الأمر يخصنى وحدى . . » .

رد سعد بحدة :

- «نحن كيان واحد» .

---

وصمت برهة ثم استطرد:

- «ولهذا يجب أن نشارك في صنع القرار».

قالت فضيلة وقد عاد إليها هدوءها:

- «الزواج مسألة شخصية».

نظر بحدة إليها، وقال:

- «هل لديه شقة تصلح للزواج؟؟».

- «شقة من غرفتين استأجرها منذ أن كان طالباً».

- «والمهر».

- «لا أدرى».

- «والإمكانات الاقتصادية للصرف على حياة الزوجية».

- «سنتعاون...».

- «والسيارة؟؟».

- «لم يحن وقتها بعد».

دق بقبضته على الطاولة، وهدر:

---

- «ستكونين الوحيدة بيننا التي لا تملك سيارة، ولا شقة محترمة.. إنك تتصرفين كالمراهقات..».

تمتت وقد احتقن وجهها:

- «لم أعد صغيرة».

كان أبوهم الشيخ علام العيسوي طوال الوقت يستمع إلى الحوار وهو يداعب حبات مسبحته السوداء العريقة، مغمضاً عينيه، رافعاً وجهه السمع إلى أعلى نحو السماء، وابتسامة خفيفة تضيء قسماته الهادئة المطمئنة، ونظرت فضيلة إليه في رجاء، وقالت:

- «أبى..».

قاطعها سعد في إصرار:

- «عدمت الحجة، فلجأت إلى أبيك..».

- «لقد أبدى أبى رأيه وأنا مقتنعة به..».

- «هذا شأن كل أب حنون لا يريد أن يفجع أبناءه برأى مخالف».

وعادت فضيلة تهتف:

---



- «أبى . . أرجوك».

طوقها الشيخ علام بيميناه، وقبل رأسها فى حب ظاهر،  
وتمتم:

- «الخيرة فيما اختار الله . . استفت قلبك وإن أفنأك  
الناس . .».

همس سعد فى خبث:

- «وقديماً قالوا: اختر لابنتك، ولا تختري لابنك».

قال الأب ضاحكاً:

- «أنت الذى اخترت يا سعد . . وأخواتك هن اللاتى  
اخترن . . أما أنا فقد اختار لى أبى رحمه الله، وتعلمون كم  
كنت سعيداً مع أمكم العظيمة . . والدليل على عظمتها  
أنتم . . لا أستطيع أن أرمى أحداً منكم بالخطأ، أو سوء  
الرأى، أو سوء النية . . كل من تكلم أبدي وجهة نظر فيها  
الكثير من الصواب . . وإلى هذا الحد ينتهى دورنا . . بقى  
أن تفكر فضيلة فيما قلنا . . ثم تختار . . وعلينا جميعاً أن  
نحترم قرارها بعد ذلك . .».

توجهت أنظار المجتمعين إلى الرجل الحكيم . . تحيط به هالة من جلال الدين وخبرة الدنيا، أمسكت فضيلة بيده وطبعت عليها قبلة أودعتها كل حبها واحترامها، وتساقطت من عينيها دمعان على اليد المرتعشة . . وخشع سعد احتراماً وهيبة، أخذ يستعيد كلمات أبيه . . يا لها من كلمات تضع دستوراً فريداً للحوار والتعامل . . وتمتم سعد:

- «أبي . . أنت موجود . . ولكننا نفتقدك . .» .

نظر إليه أبوه قائلاً في رقة:

- «ماذا تقصد يا سعد؟؟» .

- «أقصد أنك الحل لكل مشاكلنا المستعصية . . لمن لا يعرفك أحد خارج دائرتنا . . إنني أتخيلك رئيس تحرير لصحيفتنا . . لا . . بل رئيس للدولة كلها . . ماذا سيكون مصيرنا . .» .

فهقه الشيخ في سعادة، وقال:

- «أوه يا سعد . . لكل زمان دولة ورجال . . والشباب أقدر على حمل المسؤولية . . كان «سعد باشا» رجلاً قديراً

---

بحق، ولهذا سميتك على اسمه . . كان شجاع الرأي ، لكنه لم يكن مطية للانفعالات الهوجاء . . لم يفحش ، أو ينتقم ، أو يريق الدماء . . » .

وأكمل سعد فى حماسة :

- «للم يسق الضحايا إلى ظلمات السجون» .

قال سيادة المقدم :

- «لا تظلموا الثورة والأفضل ألا تتحدثوا فى السياسة

أمامى . . إن حركة سعد زغلول كانت خاوية من المضمون الاجتماعى . . » .

قال الشيخ الجليل :

- «المضمون الاجتماعى !! هذا عجيب !! من قال

ذلك؟؟ المؤرخون؟؟ وأين هم؟؟ فى زمن كهذا لا يوجد تاريخ صحيح . . » .

قال سعد دون اكتراث :

- «التاريخ أعمال لا شعارات . . » .

أردف الشيخ متفكهاً :

- «لماذا تركتم الزواج وانسقتم إلى حديث الأفاعي؟؟» .

تساءلت فضيلة في سعادة :

- «أليس الزواج مضموناً اجتماعياً؟؟» .

وضج الجميع بالضحك . .

كانت فضيلة سعيدة بحكمة أبيها ، لكنها في الوقت نفسه لم تعد غاضبة من سعد أخيها ، إن هناك بعض الحقائق التي كتمتها عنهم ، لم تصرح بكل ما تعرفه عن الدكتور عادل ، لم تجد من المناسب أن تكشف عن بعض تطرفه في الآراء ، ولا عن حداثته في الحكم على الأحداث ، أو سوء ظنه في الآخرين ، ونقمته على الدنيا وما فيها من متناقضات ، كانت موقنة أن هذه الهنات الفكرية والسلوكية في خطيبها سرعان ما تزول عندما يقف على قدميه ، وتحسن أوضاعه المالية والوظيفية ، ويصبح جراحاً شهيراً ، وأستاذاً كبيراً يشار إليه بالبنان . .

لقد انزاح عن كاهلها الكثير من العنت والخوف بعد أن فهمت أن أباهم موافق ، وإن باقى أفراد الأسرة لا يمانعون وإن كان لسعد بعد التحفظ المتعلق بالتحريات ، وشعرت فضيلة

---

باطمئنان شامل يسرى فى حناياها، وقد بدا ذلك واضحاً فى إقبالها على العمل بقسم الباثولوجيا، وفى تعاملها المقبول مع زملائها وزميلاتها، وتناولها الطعام فى شهية، ونومها العميق الذى لا تتخلله الكوابيس المزعجة.. ما أسعدها!! إنها تمضى خفيفة سعيدة، وكأنها تخطو فوق السحاب ومن حولها الزرقة الصافية والسكينة والجمال الأزلى.. كل شىء تراه يبدأ أجمل وأروع مما كان.. كم هى رائعة تلك الحياة.. لم تكن تدرك سر هذه السعادة من قبل.



دخل عليها الدكتور رشدى القصاص بمكتبها صباح أحد الأيام، ردت على تحيته باقتضاب، وانشعلت فى كتابة بعض الأوراق، إنها لن تنسى تعليمات عادل بالنسبة لهذا الشخص.. هى تعرف أن رشدى شاب مهذب طيب، لم يعلق بسمعته ما يشين طوال أيام الدراسة، أو فى فترة الامتياز، أو فى الشهور التى قضاها بقسم الباثولوجيا، لكن الغيرة تأكل قلوب الرجال، وتدفعهم لارتكاب الحماقات،

---

ومن ثم أرادت أن تضع حداً لعلاقتها بزميلها رشدى . .  
أرادت أن تقول له إنها مخطوبة لعادل ، وإن عادل - كفلاح  
- يجد حرجاً بالغاً فى أن تتحدث خطيبته مع الآخرين ، أو  
تجلس معهم دون عمل رسمى ، كما أرادت أن ترجوه أن لا  
يسىء فهمها ، أو يتضايق من صراحتها ، وهمت بالحديث ،  
لكن رشدى قال فجأة :

- «ألم تسمى عن فضيحة أستاذ الجراحة . . ؟؟» .

وبصورة لا إرادية هتف :

- «مَنْ؟؟» .

- «الدكتور زكى فودة» .

دق قلبها من الخوف ، إنه أستاذ خطيبها .

- «فضيحة؟؟» .

- «بل فضيحة . . وكارثة . .» .

شحب وجهها ، ورمت القلم والأوراق ، وهبت واقفة  
وهى تتمتم فى خوف :

---

- «امتحان عادل بعد يومين . . لكن ماذا جرى؟؟» .

- «ضبطته زوجته فى شقة خاصة مع الحكيمة نادية عبد  
الباقي ، وحدثت ضجة كبرى . . وتجمع الجيران . . وجاءت  
الشرطة والنيابة . . وأصيب الدكتور زكى بنوبة قلبية . .  
وهو راقد الآن فى غرفة الإنعاش . . وما زالت النيابة . .» .

صرخت فضيلة :

- «وعادل؟؟» .

هز رشدى رأسه قائلاً :

- من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . . أتعرفين  
قصة بائع المسك . . ونافخ الكير . .» .  
هرولت خارجة . .

كانت تريد أن تطمئن على عادل ، وتريد أن ترفع من  
روحه المعنوية بالنسبة للامتحان ، إن بقلبها خوفاً من نوع  
غامض لا تدري كنهه . .



سماء القصر العيني تمطر شائعات ، والهمس يدور في  
أروقة المؤسسة العلمية العملاقة ، وتختلط الحقيقة بالخيال ،  
وتمتزج الأباطيل بالصدق ، وتنسج من الأوهام تفاصيل  
حكايات مثيرة ، وانتقلت الأقاويل من الأطباء والحكيما  
إلى المرضى والزوار ، وكتبت إحدى الصحف خبراً مقتضباً  
دون ذكر أسماء بطريقة تلهب حب الفضول لدى القارئ .  
والعميد عقد اجتماعاً لمجلس الكلية ، وطلب مدير الجامعة -  
جامعة القاهرة - معلومات عن الموضوع ، وتضاربت الأقوال  
والأخبار ، وحينما ذهبت فضيلة للقاء الدكتور عادل لم تجده  
في غرفة العمليات ، وعلمت أنه ملازم لغرفته في السكن ،  
كلمته في الهاتف إذ ليس من المعقول أن تذهب إلى سكن  
الأطباء الرجال ؛ لأنه لم يجر العرف بذلك ، قال لها : إنه



يعانى من نزلة بردية حادة، وإنه لا يستطيع العمل اليوم،  
والمحت إلى الشائعات، لكنها لم تجد لديه رغبة فى الحديث،  
وعزت ذلك إلى الوعكة التى ألمت به، وإلى توتره بسبب  
الامتحان، تمت له الشفاء والتوفيق، وانصرفت والقلق  
يسيطر على حركتها وسكناتها، وأثناء ذهابها وإيابها سمعت  
الكثير عن الحادث المثير، ووجدت نفسها مدفوعة لرؤية  
الدكتور زكى فودة، ودخلت إلى قسم الإنعاش محرجة،  
ووجدت من يقول لها: «ممنوع الزيارة، وممنوع التواجد هنا  
لغير العاملين بالقسم»، فانصرفت معجلة، لكنها لمحت  
الطبيب الكبير يرقد خلف الحاجز الزجاجى، وقناع  
«الأكسجين» على وجهه، وحوله نخبة من كبار الأساتذة.

ومن خلال ما سمعته من شائعات استطاعت الدكتورة  
فضيلة أن تتصور فكرة عامة عما جرى، تخيلته على هذا  
النحو: الجراح الكبير على علاقة أئمة -هكذا قيل-  
بالحكيدة الرئيسة نادية عبد الباقي، وأن ذلك يجرى فى  
الخفاء منذ فترة طويلة، ويرجح البعض أنه قد تزوجها، ومن  
قائل بأنه اشترى لها فيلا فى «الدقى»، وأن السيارة الصغيرة

التي تركبها هدية منه، ويزعم آخرون أن زوجة الأستاذ كانت على علم عام بالموضوع، وأنها حاولت الانتحار ذات مرة، وأن العلاقات بين الأستاذ وأولاده كانت فى حالة من التوتر الدائم، ويقال أيضاً: إن العميد قد بلغته أنباء عن ذلك، وقدم النصيح والتحذير للأستاذ، بل أشار عليه بنقل الحكيمة نادية إلى قسم آخر، فرفض.. هل هذه الشائعات صحيحة؟؟ لا أحد يدري، لقد أصبح الناس يطلقون الكلام على عواهنه، ولا يربطون ألسنتهم إلا بالنسبة لشيء واحد: السياسة.. إن كلمة واحدة فى نقد الحاكم أو الحكم، أو إبداء رأى سياسى مخالف، قد يلقي بصاحب الرأى وراء الشمس كما يقولون.. كل شيء مباح إلا الخوض فى السياسة.. وهذا لا ينفى أننا نعيش فى عصر الحرية والديمقراطية!!

وعلى الرغم من الحالة الصحية السيئة التى يعانى منها الدكتور زكى فودة، إلا أنه أصر على الانتقال إلى مستشفى خارج الدولة، لكن كان دون ذلك صعب جمة على رأسها أن حالته ليست من الحالات التى يستعصى علاجها فى

مصر، ثم صعوبة الحصول على العملة الصعبة إذا ما فكر في السفر على حسابه، وأمكن أخيراً نقله إلى مستشفى «المعادي» الكبير، وهو من أعلى المستشفيات مستوى ومكانة.. ولم تهدأ العاصفة.. لقد كان هناك تحقيق يجري في الخفاء.. وتكاثر اللفظ.. واستدعى عدد من العاملين في القسم حكيمات وأطباء.

انهار الدكتور عادل فتوح حينما سمع من نائب القسم عبر الهاتف أنه مطلوب لأخذ أقواله.. يا للكارثة!! هل انكشف الغطاء، وظهر ما كان خافياً؟؟ الامتحان غداً.. وماذا سيقول الناس عنه.. وبالذات ماذا ستقول فضيلة.. واكتسحه غضب مدمر، فأخذ يدق الحائط بيديه ورجليه ورأسه، ويحطم الأكواب الزجاجية.. ثم ألقي بجسده المنهك فوق السرير الصغير والعرق يتقاطر فوق جبينه، ويبلل ملابسه الداخلية على الرغم من جو الشتاء والسحب التي تغطي زرقة السماء الأصلية.

أخذ قرصين من الفاليوم.. إنه يحتفظ بالفاليوم معه دائماً.. هو العصا التي يتوكأ عليها، عندما تستبد به

---

الهموم، وتخور قواه، ولا تستطيع ساقاه أن تحمله..  
لأول مرة يشعر أنه تافه حزين عاجز، وأنه يهوى إلى قرار  
سحيق.. سحيق يدمر حياته ومستقبله وكبرياءه.. شعر  
لأول مرة شعوراً عميقاً غالباً بأنه فى حاجة إلى الله..  
وصرخ والدموع تغرق وجهه:

- «أين أنت؟؟ أنا عبدك الضائع المسكين.. ألا  
ترحمنى؟؟ ضحية الغفلة أنا.. أعرف أنك بجوارى..  
لكن يكاد الجنون يقتلنى.. رأيت أبى يناجيك فى الليل..  
التوبة.. ولن أعود أبداً.. لن أعود..».

وأخذ يجفف دموعه وقد هدا قليلاً.. تنهد، ثم ارتدى  
ملابسه، وأسرع نازلاً، وكان يقفز فوق الدرج، وتعمد أن  
يتسلل من باب خلفى كى لا يراه أحد، وأشار إلى «تاكسى»  
وغاص فى شوارع المدينة المكتظة..

أمام وكيل النيابة جلس شاحباً.. قلبه يضرب بقوة،  
وقطرات العرق تندى الجبين الأسمر.. «افتح المحضر»..

سأل وكيل النيابة:

- «أتعرف الحكيمة نادية عبد الباقي؟؟» .

- «بالطبع . زميلة فى العمل . . » .

- «ألم تزرها فى مسكنها؟؟» .

هنا توقف ، ازداد خفقان قلبه ، أخرج المنديل الأبيض من جيبه ، وأخذ يجفف عرقه فى اضطراب ، ويقول :

- «كلا . . ولماذا أزورها؟؟» .

ركز وكيل النيابة بصره فى عينيه اللتين تحاولان الهرب . .

- «لكنها قالت : أنك زرتها . . » .

- «مجرد الزيارة ليس جريمة ، لكنى لم أزرها . . » .

أشار وكيل النيابة إلى أحد معاونيه قائلاً :

- «أدر الجهاز . . » .

ودار جهاز التسجيل ، ودارت معه رأس عادل . .

موسيقى ، ضحكات خليعة . . حوار . . «يا إلهى إنه صوتى» .

---

- «أهلاً عادل بك.. ها أنت ترى جنتى مفتحة  
الأبواب.. تستطيع أن تدخل.. يا مرحباً يا مرحباً.. قيس  
ابن عمى عندنا.. يا مرحباً يا مرحباً..».

تذكر عادل على الفور.. صرخ:

- «كفى.. أغلقوا الجهاز..».

جاءه صوت المحقق:

- «انتظر.. نحن لا نتلقى الأوامر منك.. من  
الضرورى أن تسمع حتى نختصر الوقت..».

طأطأ رأسه فى ذل، وسمع هذه المرة صوته:

- «إن قلبى يرتجف.. ماذا لو جاء الأستاذ الآن؟؟ إن  
هذا لو حدث فسيدمر مستقبلى..».

- «يا أبله.. هذه ليلتك.. أنت لى.. وأنا لك..».

- «يا نادية.. إننى عاجز.. الخوف يقتلنى..».

- «إن كأساً من الويسكى ستبدد كل خوف.. خذ..».

اشرب إن أستاذك خاتم في إصبعي . . لقد أحضرت لك  
أسئلة الامتحان» .

أخذ عادل يدق المكتب بقبضته في هستيرية ويصيح :

- «هذه أمور شخصية . . وأنا لم أرتكب جرماً . .» .

قال المحقق بنبرة واضحة منخفضة :

- «ألا تعتبر تسرب الامتحان جريمة؟؟» .

- «لم أأخذ من نادبة شيئاً ، والامتحان لم يُعقد بعد» .

- «والدعارة» .

- «التسجيل ليس دليلاً قانونياً . .» .

- «لكن الصوت صوتك . .» .

- «ليكن . . وليس هناك ما يدينني . .» .

قال المحقق :

- «نحن نقدر حرج الموقف ، ودقة الوضع ، ولهذا

فرضنا ستاراً من السرية التامة على التحقيق . . نادبة ليست

---

قاصراً.. وأنت كذلك.. والأستاذ أيضاً.. الأمر ليس على هذا النحو من الخطورة..».

هدأت نفسه قليلاً..

استدعيت نادية عبد الباقي، سألها المحقق:

- «هل زارك عادل في البيت؟؟».

- «أجبت قبل ذلك على هذا السؤال».

- «هذه مواجهة.. أجيبى مرة أخرى..».

- «نعم زارنى..».

- «ما مدى العلاقة التى تربطك به؟؟».

- «أصدقاء..».

- «لكن التسجيل يشير إلى أكثر من الصداقة..».

- «ماذا تقصد بأكثر من الصداقة؟؟».

- «الحب مثلاً..».

- «نعم أحبه.. وهذا ليس ممنوعاً قانونياً..».



هتف عادل في غضب:

- «هذا وهمٌ.. كانت مجرد علاقة عمل من جانبي..».

ابتسمت نادية في سخرية، وقالت:

- «أصبح الحب جزءاً من العمل، لن تجرحنى كلماتك، فأنت في موقف حرج.. كلانا يعاني..».

تدخل المحقق قائلاً:

- «لا تنكر أنك زرتها..».

- «لم يحدث..».

- «والتسجيل..».

- «التسجيل ليس قرينة.. لكن ألا يمكن أن يتم التسجيل في أى مكان آخر؟؟».

قال المحقق:

- «وما رأيك في سلوكيات الأستاذ زكى؟».

- «عالم متمكن، وجراح ماهر، وأستاذ قدير . . .» .
  - «أسألك عن سلوكياته . . .» .
  - «ليس لدى المقدرة أو المعلومات التى تؤهلنى للإجابة عن هذا السؤال» .
  - وعاد المحقق يقول :
  - «لقد ضبطه بوليس الآداب متلبساً . . .» .
  - «هذا لا يخصنى . . .» .
  - «ونادية اعترفت بعلاقتها الخاصة به . . .» .
  - «لا شأن لى بهذا . . .» .
  - «ألم تخبرك نادية بنوعية العلاقة معه؟؟» .
  - «ولماذا تخبرنى أنا بالذات؟؟» .
  - «لأنها تحبك . . .» .
  - «حتى لو حدث، فما شأنى به؟» .
  - «لقد تحولت يا دكتور من مسئول إلى سائل» .
-

- «قد يكون فى سؤالى إجابة عن سؤالك . . إنى أختار الكلمات التى تناسب المقام . . » .

تدخلت نادىة مرة أخرى قائلة :

- «الدكتور عادل مظلوم . . وما ذنبه إذا كنت أنا التى أحبته؟؟ ألا يجوز أن يكون حباً من طرف واحد؟؟» .

قال لها المحقق :

- «ألم تقومى بنفسك بتسجيل تلك اللقاءات؟؟» .

- «لم يحدث . . » .

- «وبماذا تفسرين وجودها فى شقتك؟؟» .

- «الحاقدون كثيرون . . ولست أعرف من دسها على . . » .

- «لكن الأصوات واضحة فى الدلالة على أصحابها . . » .

- «مجرد كلام . . » .

- «ألا يدل الكلام على شىء يا نادىة . . » .

- «المهم الفعل يا سيادة المحقق . .» .

- «والتلبس؟؟» .

- «هذا أمر آخر غير التسجيل . . التلبس كان مجرد مداعبات سمجة ثقيلة . . ألم أكن في حالة اضطراب أو دفاع عن النفس؟؟» .

نظر إليه، المحقق في اهتمام، وقال:

- «فسرى كلامك . .» .

- «إنه واضح يا سيادة المحقق . . أستاذ كبير . . يملك مصيرى . . وأهدانى سيارة . . وشقة باسمى . . وأغدق على ما أنا محرومة منه . . أليس لهذا كله من ثمن؟؟ أكثر عليه أن ينال بعض الرضى والمداعبات . . من يدفع يأخذ . . ذلك هو عصرنا . . أقدر العصور . .» .

التفت المحقق إلى عادل قائلاً:

- «تستطيع أن تنصرف الآن . . لكن تذكر أن أسئلة الامتحان قد تغيرت . .» .

رد عادل فى برود بعد أن اطمأن قليلاً :

- «هذا أمر لا يخصنى . . ولا تنس يا سيادة المحقق أننى كنت أول دفعتى . . وسأظل الأول دائماً» .

تتم المحقق :

- «قل إن شاء الله . . مع السلامة . .» .

مشى فى الطريق المزدحم دون هدف ، كان يريد أن ينفث عن كربه وأسائه شهيق . . زفير . . شهيق . . زفير . . إنه يمضى مفتوح العينين دون أن يرى شيئاً محدداً ، الناس من حوله أشباح ، وكذلك السيارات والبنائات ، إنها أشبه بالأحلام التى يراها فى منامه وكوابيسه . . تعست الحياة هنا . . كل أفعال البشر جرائم . . الكلام . . والحب . . والجنس . . والعلاقات . . لماذا لا يضعون القيود على هذه الأشياء فى أوروبا وأمريكا مثلاً؟؟ إننا نعيش فى عالم من قيود وسدود . . أهى الغيرة على الشريعة؟؟ كذبوا . . فهم يذبحون الشريعة كل لحظة . . أم احترام القانون؟؟ أين هو القانون؟؟ إنه إرادة الأقوياء المتسلطين . . ورنى فى أذنه

---

كلمة «الأقوياء المتسلطين» . . إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لا يكون واحداً منهم . . لكن كيف؟؟ إنه ليس ضابطاً ، ولا قرابة له بأحد من رجالات الثورة أو الحكم ، ولا يمت بصلة لواحد من رجال المخابرات أو الفن . . لو وصل!! أه لو وصل!! عندئذ تُحلُّ جميع مشاكله ، ويصبح فى مأمن من أى خطر . . وينالك الحصانة التى ما بعدها حصانة . . عندما وصل الكلية فوجئ بحشد كبير فى قاعة المحاضرات الواسعة . . مكبر الصوت يضحج بالكلمات المتحمسة والتهتافات الصاخبة . . تساءل ما هذا؟ ألا تعلم؟؟ غداً يوم النصر . . الثالث والعشرين من ديسمبر . . الله أكبر . . إنها فرصة لا تعوض . . واقترب من مكبر الصوت . . ووقف عند المنصة . . واستأذن . . ووسط دهشة الجميع أخذ يهتف بقوة:

عاش بطل التحرير . .

عاش بطل النصر . . عاش قاهر العدوان الثلاثى  
الغاشم . . بطل الجلاء . . الرئيس القائد . . باعث القومية  
العربية . . أبو الوحدة . . رائد الاشتراكية . . يسقط الخونة

أعداء الشعب .. لا رجعية بعد اليوم .. يسقط أذئاب  
الثورة المضادة .. نحن فداؤك يا زعيم .. عاش بطل  
الحرية .. فلسطين عربية .. الموت للخونة ..

ثم ألقى خطبة عصماء ، واختتمها بأن اقترح إرسال برقية  
لسيادة الرئيس ، ولرئيس الوزراء ، وللاتحاد الاشتراكي و ..  
و... و...

حينما عاد إلى مسكنه كان منهكًا تمامًا . لم يكن راغبًا  
في طعام أو شراب . كان في شبه غيبوبة تشبه إلى حد كبير  
غيبوبة الويسكى عند نادية عبد الباقي التي تلقى على يديها  
الدرس الأول في الخمر والجنس وفن الاتصالات  
الاجتماعية المفيدة . وتذكر أن الامتحان غدًا . ليكن ..  
فهو متين في استعداداته ومعلوماته . ووجد لديه رغبة  
قاهرة في النوم ..

رفع سماعة التليفون .. ثم نام .. نام بعمق ..





لفتت تصرفات الدكتور عادل أنظار مَنْ فى الكلية، وخاصة مندوب الأمن الذى يتبع المباحث العامة، ومهنة مندوب الأمن متابعة النشاط السياسى فى كل كلية، وحصر أسماء الطلبة -بل الأساتذة- الذين يبدون أدنى شكل للمعارضة، أو التبرم بتصرفات الحكومة، ومن ناحية أخرى، فإن هذا المندوب يقوم بالتعرف على المؤيدين للرئيس فى سياسته، ويبسط عليهم حمايته وتأهيلهم للمهام السياسية بين أوساط الطلبة، ويمدهم بالتعليمات والتوجيهات التى تخدم فكر المسئولين وسياستهم العامة، وبالطبع لن يتم ذلك إلا فى إطار «تنظيم سرى خاص» يلتزم بأوامر المباحث -أو المخابرات- فلكل تشكيلاته ورجاله.

وفوجئ عادل فى المساء بمن يدق باب مسكنه حينما كان



جالساً يراجع بعض الموضوعات ، استعداداً لامتحان الغد التحريري ، وظن في البداية أن الطارق أحد زملائه ، ولهذا شعر بالضيق لأنه يريد أن يفرد بنفسه هذه الليلة بالذات ، لعله ينسى ما حدث له من تحقيقات أثناء النهار ، وحينما فتح الباب وجد أمامه أحد ضباط الحرس الجامعي ، وعاد قلبه يدق خوفاً . ترى ماذا هناك؟؟ هل سيستدعيه العميد هو الآخر لمجلس تأديب؟؟ إن الكوارث لا تأتي فرادى!!

قال الضابط :

- «أسف لإزعاجك . . ما جئت إلا لأمر فيه مصلحتك»

اطمأن عادل قليلاً ، وقال :

- «تفضل . .» .

- «الوقت ضيق . . وسيادة الرائد يريدك على عجل» .

- «أى رائد؟» .

- «سوف تعرف كل شيء . . هيا بنا» .

وعاد قلبه يدق ، وجبينه ينضج عرقاً ، تلك هي

الاستدعاءات التي لا يستطيع أن يرفضها أو يعتذر عنها، لكن ليته يعرف ماذا وراء هذا الاستدعاء، لكن الملعونة نادية عبد الباقي سوف تحيل حياته إلى جحيم، إن لم تكن قد فعلت حقًا. . «يا إلهي أى عذاب هذا؟؟» .

انحنى أمام الرائد، وصافحه باحترام، وجلس معه وحيداً في غرفة خاصة، وظل مبجلًا ينتظر على أحر من الجمر، بينما الرائد -الذى يرتدى الزي المدني- يقلب في بعض الأوراق، ويسجل بعض الملاحظات، ويخطط تحت بعض الكلمات. . خير لعادل أن يعتصم بالصبر، ويجب على قدر السؤال، ولا يتطوع بالمزيد، إنه يعرف رجال المباحث العامة، ما أكثر ما يروى عنهم!! إن كلمة تقال قد ترفع قائلها إلى السماء، وأخرى قد تهوى به سبعين خريفًا في جهنم. .

قال الرائد دون أن يرفع عينيه عن الأوراق:

- «أين كنت طوال السنوات الماضية؟» .

- «هنا يا سيادة الرائد. . قلما كنت أذهب إلى قريتي

للزيارة. .» .

- «لا أقصد المكان يا دكتور . . بل أقصد الفعل . .  
النشاط . .» .

- «كان العلم يشغل معظم وقتي . .» .

- «وأمن البلد؟؟» .

- «الجميع يعرف مدى إخلاصي وصدقى للشورة  
وقائدها . .؟؟» .

نحى الرجل الأوراق ، ثم تنهد وأشعل سيجارة فاخرة ،  
وقال :

- «نحن نفرح بالأذكفاء المخلصين من أمثالك . .» .

- «شكراً يا سيدى . .» .

- «وأول شىء نفكر فيه يا دكتور عادل هو أن نضعهم فى  
المكان الصحيح لخدمة بلدهم وتأمينها . .» .

- «بالضبط يا سيدى . .» .

- «والكفاءة والثقة كيان واحد» .

- «نعم . . نعم؟؟» .

- «وأنت كفاء...» .

وأضاف عادل فى يقظة :

- «وحمل ثقة يا أفندم...» .

ابتسم الرائد لسرعة بديهته، ثم أردف :

- «إننا فى موقع المسئولية الكبرى... ووضعنا يتيح لنا رؤية أوسع وأعمق، فهناك الكثير من الأمور التى تخفى على البلهاء... إن رؤوس الفتنة ترتفع، وخاصة بعد جريمة الانفصال فى سوريا، وإصدار القرارات الاشتراكية، واتساع نطاق حرب اليمن، وألاعيب أمريكا وإسرائيل...» .

قال عادل فى حماس :

- «إن حرية القرار التى يمتلكها رئيسنا تثير حقد الاستعمار والإمبريالية والأذئاب...» .

- «بالضبط... ومن هنا...» .

صمت الرائد برهة، وأخذ نفساً عميقاً من سيجارته، ثم تابع قوله :

- «ومن هنا كان علينا أن نفتح عيوننا جيداً.. وأن نجھض أية تحركات عدائية قبل حدوثها.. الأغنياء يتهموننا بالقسوة فى ضرب المعارضين وتشتيت شملهم وسجنهم ومراقبتهم.. لو لم نفعل ذلك لضاعت مكاسب الشعب.. لسنا يميناً ولا يساراً.. نحن العروبة.. ومصر.. والاشتراكية..».

شعر عادل بمزيد من الاطمئنان والارتياح، لقد نجحت خطته بالأمس، إن دموعه التى سكبها، والدعوات التى رفعها إلى الله فى عليائه، قد استجيب لها.. ولذلك قال فى ثقة:

- «إننى أحفظ الميثاق عن ظهر قلب.. واسمح لى أن أقول بأننى مدمن لخطب الرئيس.. أستمع إليها فى شغف.. وأشعر أن كلماته الصادقة تتحول فى داخلى إلى عقيدة وسلوك وعمل.. ومن حسن حظى أننى لم أنتم لأية منظمات خارج نطاق الثورة طول حياتى.. أنا ابن الثورة.. وأبى فلاح فقير.. والثورة علمتنى وقدمت لى المساعدات.. لا عيب أن أعترف بأننى كنت أتقاضى معونات شهرية من وزارة الأوقاف..».

---

ابتسم الرائد فى ارتياح ، وقال :

- «لدينا ملف كامل لكل طالب . . أتريد أن تعرف آخر المعلومات عنك؟؟» .

لم يجب عادل ، وعاد قلبه يخفق . . هذا العضو الحساس فى جسده يستجيب لأى إثارة أو إشارة . .

قال الرائد :

- «موضوع نادية عبد الباقي . .» .

انتفض عادل كمن لدغته حية ، وهب واقفاً فى ذعر ، وقال :

- «أقسم لك أنى مظلوم . . إنها ظروف صعبة ، كيف أوضح لك؟؟» .

قهقه الرائد ، وقال ببساطة :

- «هذا أمر تافه ، ولا يهمنا الالتفات إليه . .» .

- «الحاقدون كثيرون يا سيدى» .

- «أعرف . . .»

- «والشائعات تقلب الحقائق . . .»

- «نحن نعاني منها . . .»

- «إنها محاولة بشعة للقضاء على . . .»

- «عندى محاضر التحقيق كلها . . .»

شحب وجه عادل . . يا للكارثة . . إن الشكوك تحيط  
به . . كيف يرى نفسه . . النيابة شيء . . وهنا شيء آخر ،  
فى النهاية قرائن وأدلة وقانون . . وهنا الأمزجة وحدها  
والشكوك هى أدوات الإدانة . . أيعترف بالقصة كاملة كما  
حدثت؟؟ لا . . لا . . سوف يضيع كل شيء إن أقدم على  
هذه الخطوة الرعناء ، عليه أن يتشبث بالإنكار :

وجاءه صوت الرائد :

- «هذه أمور لا علاقة لنا بها . . نحن نعمل فى مجال

آخر ، ولا ندين الناس لمجرد علاقات نسائية أو جنسية تحدث  
مليون مرة كل يوم بين الناس . . .»

قال عادل وهو يجفف عرقه :

- «كل ما أحرص عليه هو ثقتك فيّ . . .» .

- «هذه ليست محل شك . . من الطبيعى أن تشور

الغرائز ، وينفث الرجال عن كبته . . ألسنت رجلاً؟؟» .

وأخذ الرائد يقهقه فى سعادة ، وخرج عادل من توتره

وهمومه وأخذ هو الآخر يقهقه . .

قال عادل وهو ينحنى شاكراً ويأخذ السيجارة :

- «ولو أنى لا أدخن إلا أنى أقبلها منك بسرور . .» .

- «عربون الصداقة إذن . .» .

وأخذ الرائد يشرح لعادل مهمته الجديدة ، سوف يكون

رئيساً للتنظيم فى الكلية ، وسيعقد له اجتماع بالداخلية

ليلتقى فيه بزملائه فى التنظيم ، أخذ يشرح له أيضاً تفاصيل

العمل والمراقبة والتقارير الدورية ، وتسجيل كل صغيرة

وكبيرة تحدث من الطلبة أو الأساتذة ، وركز الرائد بصورة

خاصة على التيارات الإسلامية - الإخوان المسلمين -



والشيوعيين وأبناء رجال المال والأعمال ، وأبناء أسر الإقطاع القديم والأحزاب القديمة . .

وأبدى عادل تفهماً سريعاً لكل ما يراد منه . .

وقبل أن ينصرف عادل استجمع شجاعته ، وقال :

- «هذه القضية تورقنى . .» .

- «أية قضية؟؟» .

- «فضيحة نادية عبد الباقي . .» .

قال الرائد بهدوء :

- «لا تفكر فيها . . إنها أتفه مما تصور . .» .

- «إذا نجوت من النيابة يا سيدى ، فهناك مجلس

التأديب فى الكلية . . ثم فى النقابة . .» .

- «قلت لك لا تهتم يا دكتور . .» .

- «أمرك . .» .

وعندما كان عادل يصافحه ، ضغط الرائد على يده

مؤكدًا ، وقال :

- «سوف يصدر أمر منا بحفظ التحقيق نهائياً . . ليس من المعقول أن تكون جامعة القاهرة العريقة ، وكلية الطب بالذات مادة للقليل والقال . . إنها سمعة الجامعة . . بل سمعة البلد كلها . . بل أستطيع القول بأن الأمر يتعلق بنا كثورة . . وأمن الثورة . . إن فضيحة كهذه تسيء إلينا أكثر مما تسيء إليكم . . وتأكد أنه لن يمسك أحد بسوء . . وكذلك نادية . . » .

قال عادل في فرح :

- «والأستاذ زكى ؟» .

- «سوف يحال للتقاعد . . » .

- «لإدانته ؟؟» .

- «لا . . بل لأنه كثير الكلام ، ولا يتحفظ في نقده للحكومة . . نعرف ذلك عنه من زمن ، ولولا أنه لا يتمتع بأى تأثير اجتماعى ، ولا صلة له بأية تنظيمات لاعتقلناه . . إنه شخصية لا وزن لها . . لكنه فى الحقيقة جراح ماهر . . » .  
مع السلامة . .

انحنى عادل في احترام وسعادة ، ثم اتخذ سمته صوب  
الباب . . حاءه صوت الرائد :

- «كل ما جرى بيننا سرى للغاية لا يصح أن يعرفه  
أحد . . » .

- «أعرف يا سبدي . . » .

- «إفشاء السر جريمة . . جريمة من نوع الخيانة  
العظمى . . » .

- «بالتأكيد . . بالتأكيد . . » .

- «واذهب إلى الامتحان بشجاعة . . أنا واثق أنك  
ستنجح . . » .

- «صحيح؟؟؟» .

قهقهه الرائد :

- «نحن أقوى من نادية ألف مرة . . » .

سار في الطريق متنفخ الأدواج ، منفوش الريش  
كالطاووس ، إنه الأقوى ، من يجرؤ بعد اليوم على التصدى

---

له؟؟ إنه قادر على النيل من أية شخصية، كلمة منه تقذف  
بأى خصم إلى الأقبية السوداء، هؤلاء الأوباش الحاقدون لا  
يحترمون إلا القوة، وسأسحق كل من يعترضنى . . حتى  
عمى لن أغفر له إساءته لأبى!! جاء أوان الأخذ بالثأر، ما  
أعذب الشعور بالافتقار . . لقد تحررت من الخوف  
والكبت . . هؤلاء الذين يسرون فى الشارع لا يعرفون من  
هو عادل فتوح!!



استيقظ من نومه فى الصباح مبكراً، وتناول فطوره على  
عجل، ثم شرب القهوة مرتين، استعداداً للذهاب إلى  
الامتحان، كان يشعر بالانتعاش والثقة فالجراحة حبه  
الأول، لقد درسها وطبّقها عملياً، ولن يستعصى عليه أى  
سؤال مهما كان . . وكان لقاء أمس يزوده بطاقة هائلة من  
الشجاعة، وحينما خرج من سكن الأطباء، وجد الدكتورة  
فضيلة فى انتظاره، لقد جاءت مبكرة لتطمئن عليه  
وتشجعه .

- «هالو فضيلة» . .

قالت ضاحكة :

- «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . . .» .

قال وهو يشمخ بهامته فى أنفة :

- «فلنسمك الشيخة فضيلة إذن . . .» .

سارت إلى جواره، وأخذت تلقنه بعض الدعوات  
المأثورة حتى يفتح عليه مغاليق العلوم وأسرارها، ويكتب له  
التوفيق .

قال لها :

- «وهل تجدى الدعوات بالنسبة لمن لم يذاكر؟؟» .

- «يالطبع لا . . لكنها ذات فائدة لمن ذاكر . . .» .

- «السماء لا تحابى أحداً يا فضيلة . . أو يا صاحبة

الفضيلة . . .» .

تمت قائلة :

- بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يونس : ٦٢ ، ٦٣].

- «ولكنى لم أصل الصبح . . .» .

هتفت فى ضيق :

- «لماذا؟» .

- «نسيت . . .» .

- «فلتصل الآن . . .» .

- «والامتحان؟؟» .

- «هناك متسع من الوقت . . .» .

غير مجرى الحديث ، قال :

- «لم أرك بالأمس . . .» .

- «كان الهاتف معطلاً . . ثم إنى لم أشأ أن أشغلك عن

المذاكرة . . .» .

أفهمها أنه هو الذى رفع سماعة الهاتف ، كما أشار إلى أنه انشغل عن المذاكرة لأشغال مهمة ، ثم قال دون حرج :

- «لقد استدعتنى النيابة . . .» .

هتفت فى دهشة :

- «يا إلهى !! لماذا؟؟؟» .

- «قضية الدكتور زكى فودة» .

- «وما شأنك بها؟؟» .

- «لا تهتمى بذلك ، مجرد شهادة عابرة . . .» .

- «تعنى أنك . . .» .

قاطعها قائلاً :

- «برىء تماماً . . هذا أمر طبيعى ، أكنت تعتقدين غير

ذلك؟؟؟» .

- «الشائعات كثيرة . . .» .

- «ضعيها تحت حذائك . . .» .

---

- «إنها قضية خطيرة» .

رد دون اكتراث :

- «ستُحفظ . . سيُهاَلُ عليها التراب» .

- «كيف عرفت؟؟» .

نظر إليها من علٍ ، ثم أضاف :

- «وسيُحال الأستاذ للتقاعد» .

- «غير معقول . .» .

- «إلى اللقاء يا صاحبة الفضيلة . .» .

وضحك . . وضحكت . . ومد خطواته مسرعاً ، تاركاً

فضيلة واقفة وحدها تفكر . .

●●●



دار الهمس هنا وهناك، بعد أن منع نشر أى شىء عن  
الفضيحة، وتناقل الناس خبر حفظ القضية، وإحالة الأستاذ  
إلى الاستيداع، لكن الشىء الغريب أن باقى من حامت  
حولهم الشبهات عادوا إلى مواقعهم الأولى، نادى عبد  
الباقى بقيت بقسم الجراحة، والذين استدعوا للشهادة  
كعادل فتوح وغيره لم يمسوا بأذى، واختير لرئاسة القسم  
أستاذ جديد، وانطلقت شائعات مضادة تزعم أن القصة  
كلها ملفقة، وأن التى دبرتها هى زوجة الأستاذ المحال إلى  
التقاعد، وأن بعض الممرضات والأطباء لعبوا دوراً فى  
الإبلاغ وإشعال المأساة. . المهم أن عادل فتوح نجح فى  
الامتحان، ليس هذا فحسب، فقد أصبح من الشخصيات  
المرموقة فى الكلية، بل فى جامعة القاهرة، وصار يتصدر

الاجتماعات السياسية، والاحتفالات الرسمية، وأصبح أيضاً مشرفاً على اتحاد الطلبة، ورشح لأحد المناصب القيادية فى منظمات الشباب، كما كان يدعى للدورات التدريبية والتأهيلية التى يعقدها الاتحاد الاشتراكى فى القاهرة وحلوان والإسكندرية وغيرها، وأصبح ضليعاً فى الاشتراكية العلمية، وفقيهاً فى الميثاق، يستفتيه الناس فيفتى عن جدارة، أصبح من ذوى الرأى والاجتهاد فى العقيدة الجديدة، وتوالى أسفاره ضمن الوفود الرسمية للحزب الواحد، فزار لأول مرة فى حياته روسيا، ويوغوسلافيا، والهند، وتشيكوسلوفاكيا، وغيرها من دول عدم الانحياز، وأخذت صورته تنشر فى الصحف والمجلات، ويستضيفه التلفزيون والإذاعة، وتعرف على شخصيات كبيرة لها وزنها، وأخذ يحضر بعض الاجتماعات الخاصة التى يعقدها الرئيس، وبعد أن كان يحتفى فى كنف نادى عبد الباقي أصبحت هى التى تلوذ بحماه، وارتفع دخله بطريقة سريعة غير مفهومة، كما استطاع الحصول على شقة فاخرة، من شقق الحراسة بإيجار رمزى لا يتجاوز الأربعة جنيهات،

---

مع أنها تؤجر شقة مفروشة للسواح من دول الخليج والجزيرة العربية بألف جنيه شهرياً، وتسابقت الجمعيات والتعاونية وشركات القطاع العام إلى إرضائه، وإعطائه البضائع والكميات التي يريد، وعرف - ببرايعته كيف يستفيد مادياً من ذلك كله، كما أصبح ذا تأثير في الكلية، فيقوم بالتوصية على بعض الطلبة في الامتحانات، وفي اختيار المعيد، ومع ذلك كله أخذ يعطى بعض الدروس الخصوصية في الجراحة للطلبة المقتدرين، على الرغم من أن لائحة الجامعة تحرم ذلك، وأخذ يماطل في موضوع الزواج نظراً لانشغاله بأمور مهمة أخرى خارج الكلية، وعلى الرغم من التوتر والضييق اللذين تعاني منها فضيلة إلا أنها اعتصمت بالصبر، ولم تكن في عجلة من أمرها، إن مشروع الزواج ليس بالأمر السهل، ويحتاج بالتأكيد إلى استعدادات وترتيبات لا بد منها، وخاصة بالنسبة لرجل مثل عادل فتوح الذي اتسعت دائرة اتصالاته على المستوى السياسى والعلمى أيضاً، لكن القلق يساورها، فاهتماماته العاطفية ضمرت، وإن لم تكن بردت،

---

وتحمسه للزواج يبدو في بعض الأوقات فاتراً، والشكوك أخذت تعبت بمشاعرها، لكنها تكتم ذلك كله عن ذويها وأصدقائها..

قال لها زميلها الدكتور رشدي القصاص :

- «عادل يصعد..».

- «وماذا في ذلك؟؟».

- «علامات استفهام كثيرة تحيط به من كل جانب».

- «أهى الغيرة؟؟».

- «أستغفر الله، بل هو في وضع لا يحسد عليه».

- «ماذا تقصد بالضبط يا رشدي؟».

تلملم في مكانه محرجاً، وقال :

- «يقولون إنه كان وراء حرمان عدد كبير من المعيدين في

الحصول على حقهم..».

بدا الغضب على وجهها، وهتفت :

- «لا أريد أن أسمع مثل هذا الكلام الطائش، فالجامعة

لها تقاليدها وقوانينها، وعادل ليس أستاذًا فى قسم، ولا عضواً فى المجلس . . .» .

أطال النظر إليها دون أن تطرف عيناه، وقال :

- «هناك موافقة جهات الأمن . . .» .

- «تعنى . . .» .

رد بسرعة قبل أن تكمل عبارتها :

- «بالضبط . . . لأن تقريراً موجزاً من عدة سطور قد يعصف بمستقبل إنسان، حتى ولو كان أول الدفعة . . . ولهذا فإن معظم الذين حرموا من وظيفة معيد كانوا من الإخوان المسلمين . . .» .

قالت فى شىء من الحلق :

- «أنت من الإخوان . . . أعرف ذلك . . . ومع ذلك فأنت فى موقعك كمعيد . . . ولم تمس بأذى . . .» .

- «حدث ذلك منذ زمن . . . وما أنا إلا مجرد مسلم يرفعى حق الله والناس . . .» .

قالت ويدها ترجف :

- «أنا لا أدينك لمبدئك ، ولكن أنفى الشبهة عن عادل» .

- «هذا طبعى ، فهو خطيبك» .

- «ألا ترى يا رشدى أن الناس يخترعون الاتهامات بالنسبة لمن يحقق قدراً من النجاح؟؟ لكل مبادئه وطريقته فى الحياة . . قد تختلف فى رأى . . وهذا أمر لا غبار عليه ، إن عادلاً مؤمناً بالثورة ومتحمساً لها ، والملايين يفعلون فعله . . ماذا فى ذلك؟؟» .

هز رشدى رأسه قائلاً :

- «لم يكن يؤمن بشيء قط فى الماضى ، اللهم إلا تحقيق التفوق العلمى . . ألا تعرفين؟؟» .

كانت فضيلة تعتقد أن رشدى يقول الحق ، على الأقل فى عبارته الأخيرة ، إنها تذكر حوارها معه منذ زمن ، لكن التغيير يقع . . بل لا بد أن يقع فى يوم من الأيام . هكذا الإنسان ، وليس هذا منتهى التغيير ، من يدري؟ قد يعود

---

عادل إلى سابق عهده فى السخط على الناس والسياسة  
والثورة والسخرية من كل ذلك ، إنه انفعالى متقلب ، لا  
أحد يدري ماذا يجرى فى داخله ، إنه - لا شك - حريص  
على النجاح بأى ثمن ، ويريد أن يؤمن ظهره ضد طعنات  
الزمان الغادرة ، لا يريد العودة إلى أيام الفقر ، والخوف ،  
والانتظار الطويل . .

أفاقت فضيلة من شرودها ، وهتفت :

- «ولماذا تشغل نفسك به؟؟» .

- «لأنى أشفق عليك . . وأبوك أستاذى وشيخى» .

- «ولماذا تشفق على؟؟» .

- «الله . . .» .

قالت فى شىء من الحرج :

- «أشكرك . . .» .

أردف قائلاً :

- «إن أوضاع العالم تؤرقنى . . أشعر أحياناً أن مصير

كل مؤمن أمانة فى عنقى . . لا أستطيع أن أراه يسقط فى بئر عميق ، أو ينجذب إلى نار عاصفة . . أو يهوى فى قاع الظلم والقهر . . إنى أتعذب من أجل الآخرين . . لا أدري لماذا أقضى الليالى معذباً أفكر فى الضحايا . . وإذا كانت هناك نصيحة أقدمها إليك كأخ ، فهى أنك لست له . . وليس لك» .

انتفت واقفة ممتعة . . إن رشدى يهدم كل أحلامها وآمالها ، وهى لا تطيق أن تتصور ذلك ، وقلبها يرفضه . . يرفضه . . وعين الحب لا ترى إلا الجانب المضىء من القمر . . صرخت فى هستيرية :

- «لقد كان عادل على حق حينما رجانى أن لا أتعامل معك أو أكلمك» .

رد فى هدوء :

- «أو فعلها؟» .

- «نعم . . وهو على حق . . إنك تُكن له كراهية بشعة . .» .

---



قال باسمًا :

- «علم الله أنى ما كرهته . . فقط أنقم على أسلوبه . . أنا لا أتكلم من فراغ . . ولكن لدى أسبابى القوية لإدانة تصرفاته . . » .

قالت فضيلة مجددة :

- «لا أريد أن أسمع المزيد . . » .

هز رأسه فى أسف ، وردد بضع كلمات من القرآن الكريم :

- « . . ﴿ فَتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر : ٤٤] صدق الله العظيم . . » .

هم بالقيام ، ومضى متاقلاً إلى مكتبه ، كان يعرف عن يقين أن عادلاً منغمساً فى الإثم حتى قمة رأسه ، فقد عادت علاقته المشبوهة مع نادية عبد الباقي ، واتسعت دائرة معارفه من النساء ، وخاصة فى نطاق الحزب والوسط الفنى ، وعنده الدليل الأكيد على أن عادلاً يكتب التقارير السرية ضد بعض

الطلبة وهيئة التدريس ، وعلاقته القديمة برشدى كشفت الكثير عن نقائصه الفكرية والأخلاقية ، كان رشدى أكثر الناس معرفة به ، وأشدهم التصاقاً ، عامله كالطبيب النفسى الذى يتدرج مع مريضه ، لكن النكسة الأخيرة التى أصابت عياداً جاءت على حين غرة ، وأصبح الوقت متأخراً لإنقاذه . . إنه يندفع كثور جامح مشتعل الغريزة ، صاحب الغضب . . وتتم رشدى بينه وبين نفسه :

- «إنى أحبها . . فليسأمننى الله . . لكنى لم أفتر عليه . . لا أمل فى أن تعدل عن موقفها . . فليحماها الله . . إننى لا أستطيع أن أضع تفسيراً لانجذابها إليه . . هى من طينة ، وهو من طينة أخرى . . كيف يتألف النقيضان ؟؟ لكم يعز على أن يفترسها هذا الوغد . . كان الله فى عونك يا شيخى الجليل . . » .

كان رشدى كلما استبد به الكرب ، أو اعتصرتة الآلام النفسية ، ارتحل صوب مسجد الإمام الحسين ، هناك نسيمات رخية تبرد انفعالاته ، وهناك إيقاعات سماوية ملائكية تسكب النور فى وجدانه ، البساط الأخضر يذكره بالجنة ،

---

والقناديل الشفافة تميّط عن نفسه الحيرة، وترتيل الآيات  
القرآنية يمتزج بفكره ونفسه، ويجعله يسبح في أفق من  
الضياء، والصفاء، والفهم الواضح لأبعاد الأشياء  
وعلاقاتها وحركتها نحو المصدر الأزلي، ومهرجان الخشوع  
والسلام يبسط رواقه على المسجد كله، في العيون دعاء،  
وعلى الوجوه ضراعة، وفي الأيدي المرتفعة إلى السماء  
أمل، يتوارى بريق الدنيا وإغراءاتها، وتهرب الوساوس  
الشیطانية، فلا تجد لها مكاناً في الساحة الرقاقة الندية..

أفاق رشدي من حلمه على صوت حبيب:

- «طالت غيبتك يا طيب».

نظر.. إنه الشيخ علام العيسوي.. صديقه وأستاذه من  
قديم.. هو مرجعه في الفقه والتفسير والتاريخ.. نبراته  
تشيع الاطمئنان والثقة في نفسه.. أشرق وجه رشدي  
بالسعادة والرضا، واختطف اليد الطاهرة ليقبلها.

- «العفو يا بني.. أستغفر الله..».

---

وأخذ يتجاذبان أطراف الحديث في انتظار أذان المغرب ..

فجأة قال الشيخ :

- « ما الذى يكرهك .. إن فى عينيك سؤالاً .. » .

- « أجل يا شيخنا .. » .

- « العالم يموج بالأسئلة الحائرة ؟ » .

- « وماذا نفعل ؟ » .

- « ابحث عن الجواب .. ابحث .. » .

- « قد لا أجده .. » .

- « قلت لك ابحث .. السؤال مرض ، والجواب

دواؤه .. ألم يقل حبيبنا المصطفى ﷺ : « ما أنزل الله داءً إلا

وأنزل له دواء .. فتداؤوا عباد الله .. ولا تداؤوا بمحرم .. » .

ترقرقت الدموع فى عيني رشدى ، وخفض رأسه حياء ،

وأغمض الشيخ عينيه ، وأخذ يتمتم :

- «... ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف : ٧٩-٨٢]...».

هز رشدی القصاص رأسه، وقال :

- «فهمت...».

- «ماذا فهمت؟».

- «إن للخفاء أسباباً يعلمها خالق الأرض والسماء...».

تمت الشيخ :

- «وعلمها للعبد الصالح، ولم يحط بها موسى نبي

الله...».

ثم أخذ يطوح رأسه يمينه ويسرة، ويقول :

- «وعندما علم موسى الجواب، واستلم الدواء، وقال

له الخضر عليه السلام: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨] لماذا؟؟ لأنه لم يستطع الصبر... هذا هو النبي الإنسان، فما بالك بالإنسان الإنسان؟؟ رحلة الحياة الحقيقة هي في البحث عن الجواب... إنها متعة روحية رائعة...».

قال رشدى:

- «وأنت بعد هذا العمر الطويل، هل عثرت على الجواب».

- «تساؤلات كثيرة، وجدت عليها الجواب، وتساؤلات كثيرة لم أزل أبحث... والعمر لا يكفى... وما زلت أبحث...».

عاد رشدى يقول فى اهتمام:

- «ولماذا هذا العناء يا شيخنا؟؟».

- «لأن كثيراً من الإجابات ليست هنا على الأرض... سنجد الجواب الشافى فى الحياة الأخرى... إن مائة عام نعيشها فى الدنيا ما هى إلا قطرة من بحر الخلود والأبدية فى الآخرة... أليس هذا منطقياً؟؟».

---

تتم رشدي :

- « صدقت . . » .

وجلجل صوت المؤذن لصلاة المغرب : الله أكبر . . الله أكبر . . وتراص الناس صفوفًا منتظمة للصلاة ، كان رشدي مستغرقًا في صلاته ، ناسيًا الدنيا وكل ما حوله ، يشعر بلذة من نوع غريب وهو يستمع إلى الآيات ، ويقرأ الفاتحة ، ويدعو باري الكون ، إنه لم ينظر إلى وجوه الواقفين جواره ، كان نظره وفكره ينطلقان إلى بعيد . . إلى عالم النور والصفاء . . وما إن انتهى من صلاته وختمها ، حتى سمع صوتًا إلى جواره يقول :

- « قم معي دون أدنى حركة أو صوت . . » .

أفاق رشدي ، ونظر إلى الرجل عن يمينه :

- « مَنْ أنت ؟؟ » .

- « المسدس في جيبي . . ووراؤك ثلاثة من رجالى » .

- «لماذا كل هذا؟؟» .

- «قم . . وسر أمامنا . . وحذار . .» .

- «ونحن فى بيت الله . .» .

- «ولا حركة . .» .

أدرك رشدى على التوحقيقة الموقف ، ليس هذا  
بجديد ، كل يوم يحدث أمر كهذا . . جاء صوت الرجل :

- «مباحث أمن الدولة . . نحن وراؤك طول اليوم . .» .

- «أعرف . .» .

تلفت رشدى حواليه ، لم يجد أثراً لشيخه الجليل ، لكنه  
صرخ مع ذلك قائلاً :

- «يا سيدى . . أنا ذاهب للبحث عن الجواب . .» .

وكزه الرجل بغضب ، وقال :

- «من تخاطب؟؟» .



- «سیدی» ..

- «أی سید ..» .

ضحك رشدي قائلاً:

- «الحسين ..» .

- «هل أصيبت بلوثة؟؟» .

لم يجب ، ومشى مستسلماً لمصيره .

●●●

تبحث فضيلة عن السلام الحقيقى فلا تجده، لماذا تخذع  
 نفسها؟ كل ما حولها ينبى عن القلق، فقلبها غير مطمئن،  
 والقاهرة تموج بالكثير من الأحداث والأنباء، حتى أبوها  
 عاد بالأمس كأيًا حزينًا على غير عادته، وسيادة المقدم زوج  
 أختها رندة لم يستطع الحضور إلى البيت منذ عشرة أيام  
 بسبب إعلان حالة الطوارئ، والحرب فى اليمن تزداد  
 ضراوة، وخصوصًا فى منطقة تدعى «صعدة»، وطبيب  
 النساء زوج أختها سميرة لا يأتى إلا ليأكل وينام، فوقته  
 مملوء بالعمل بين المستشفى الحكومى وعيادته الخاصة، ليس  
 لديه وقت لأن يفكر فى شىء آخر، الأوقات القصيرة التى  
 يقضيها جالسًا إلى المائدة تراه يأكل بسرعة، والنوم يداعب  
 أجفانه، الدنيا تجرى وتجرى، والناس يتسابقون كالمجانين،

فيتصادمون ويتصايحون، ولا يرحم أحد أحداً، لكن أخاها سعد هو الوحيد الذى ظل متماسكاً رائق المزاج، محباً للنقاش، عالماً بيوطن الأمور، إن فضيلة تحب «سعداً» برغم ما بينهما من خلافات فى رأى تصل لحد الشجار، إن جلوسها كل يوم إلى سعد أمر لا مفر منه، قد يستفزها أو يقلقلها، لكنها ترحب بكل ما يقول سواء أقبلته أو رفضته. . كان سعد يحادثها فى كل الأمور إلا عادل. . كان يتجنب الخوض فى شخصه بالخير أو بالشر، احتراماً لمشاعر أخته، لكنها تمت فى أوقات كثيرة أن يفتح لها قلبه، هى فى حاجة إلى معرفة المزيد عن عادل من مصدر آخر، لكن الصحفيين - حسبما تعتقد فضيلة - لا يعرفون الحياء، إنهم متحيزون دائماً لوجهة نظر ما، سواء أكان ذلك بالحق أو بالباطل، هذا مع أن الصحفيين يظهرون على الورق خلاف ما يبطنون، فمقالاتهم اليومية تسبح بمجد الرئيس والثورة، وأحاديثهم الخاصة تسب وتلعن، قالت له فضيلة :

- «الصحافة هى الإثم الأكبر فى عصرنا. .».

---

- «لماذا الصحافة بالذات؟؟ إنها صدى لما يجري على الساحة».

قالت في تحد:

- «إنكم تعطون صورة جميلة مشرقة عن الحياة، مع أن الواقع في منتهى السوء...».

رد سعد متفلسفاً:

- «إذا أردت الحكم على الصحافة، فليكن حكمك عليها من خلال أهدافها ووسائلها... وعلى ضوء ذلك يمكننا القول إن صحافتنا من أنجح صحافة العالم...».

هتفت فضيلة:

- «يا إلهي!! إنكم تقلبون الباطل حقاً...».

- «هذا هو النجاح يا فضيلة...».

- «لقد فسد كل شيء إذن».

اعتدل سعد في مكانه، وقال في برود:

- «إن هدف الصحافة التعبير عن إرادة الحاكم وفلسفته،

---

هذا هو واقع الأمر ، ووسيلتها التعبير عن صدق تلك الفلسفة ونجاحها وإتيانها بالمتجزات . . بل والمعجزات . . الصحافة مؤسسة حكومية . . ونحن نأخذ أجورنا في هذا الإطار . . ولو خرجنا عن ذلك لاتهمنا بالغباء والخبل . . بل الخيانة . . نحن مجندون يا عزيزتى الدكتورة مثل خطيبك تماماً . .» .

سقطت العبارة الأخيرة عليها ، يصاحبها دوى هائل . .

قالت وقد احتقن وجهها :

- « لا أفهم ما ترمى إليه » .

- « إنه أصبح شخصية بارزة فى تنظيم الحزب . . وله كلمة مسموعة . . » .

تململت فى خرج وغمغمت :

- « هل التفوق الحزبى جريمة؟؟ » .

- « أستغفر الله يا شقيقتى . . لكنى أقصد الوصول . . والوصول أنواع . . الوصول فن . . » .

- «ما هذه الألغاز..؟؟».

- «لا ألغاز.. الحقيقة عارية.. والناس اليوم يتباهون  
بالصفاقة..».

صرخت:

- «كفى يا سعد..».

ربت على كتفها في حنان، وقال:

- «لماذا تأنفين يا صغيرتي الحبيبة من قول الحقيقة؟؟ لقد  
حرصت على جرح مشاعرك زمنًا، ولكن لا يمكنني  
السكوت، إن فضيحة نادية عبد الباقي يعرفها الجميع..  
وخطيبك ضالع فيها.. لكن الأوامر العليا صدرت بتجاهل  
الموضوع، وعدم النشر.. إن تدخل المباحث العامة في أمر  
كهذا يعتبر بالغ الخطورة.. لكن القانون قد فقد  
احترامه..».

قالت وقد شحب وجهها:

- «هل أفهم من ذلك أن..».

---

قاطعها قاتلاً:

- «ليس بينى وبينه عداً شخصى.. لكنك أختى..  
وليس من المفيد أن نخوض فى الموضوع أكثر من  
ذلك..».

أثارت كلمات سعد فى نفسها نوازع الرعب، إنها لا  
تختلف كثيراً عن ما قاله زميلها رشدى القصاص الذى  
عهدته صادقاً أميتاً مخلصاً، فصور الآمال الرائعة  
تنهار، الحلم الجميل الذى نعمت فى جنته تعصف به رياح  
السموم، والكوابيس المخيفة تتحول من النوم إلى اليقظة  
الحقيقة ليست عارية.. إنها غامضة غموض الليل البهيم  
الذى أقفر من القمر والنجوم، وكيف تتجلى الحقيقة إذا  
كان إنسان يلبس ألف قناع وقناع فى اليوم الواحد؟؟ تعست  
الحياة وتعس كل ما فيها.. لماذا يتحول الناس فى زماننا إلى  
ذئاب وضرار؟؟

قدمت زوجة سعد من الطابق العلوى، وقالت وهى  
تهبط الدرج:

---

- «أنسيت أننا ذاهبان لإجراء تحقيق صحفى فى مديرية التحرير؟؟ هيا . . لقد تأخرنا . .» .

قال سعد ساخراً :

- «نستطيع أن نكتب التحقيق ونحن فى القاهرة» .

قالت زوجته :

- «والصور؟» .

- «تستخرجها من الأرشفة» .

- «وتصريحات الكبار هناك؟؟»

- «نفبركها» .

سأله فضيلة عن «الفبركة» ، فأخبرها أنه مصطلح صحفى يعنى تأليف . . أو اختراع الأخبار والأقوال . .

وعادت زوجة سعد تقول :

- «إنها رحلة ممتعة . . وفيها بدل سفر . . وولائم

دسمة . . هيا يا رجل ، ولا تكن كسولاً . .» .



فى المساء عادت سميرة الصيدلانية ممتعة الوجه ، زائغة النظرات ، وما إن دخلت وأغلقت الباب حتى انفجرت باكية فى حرارة ، مما أثار الدهشة والذهول ، وجرت إليها الدكتورة فضيلة متسائلة ، وقدم الأب الشيخ علام العيسوى وهو يتمتم «اللهم لا نسألك رد القضاء ، ولكن نسألك اللطف فيه» ، وهروا أطفال المنزل والحيرة ترسم على وجوههم البرينة :

- «ماذا جرى يا ابنتى؟؟» .

- «أقسم يا أبى لا دخل لى فى الموضوع كله . .» .

وردت فضيلة فى تخويف :

- «ماهى الحكاية؟؟» .

أخذت سميرة تجفف دموعها ، وتقول :

- «لقد جاء المفتشون ، وفحصوا الأدوية فحصاً دقيقاً . .

قلت : لعلهم يبحثون عن بعض أنواع الأدوية المزورة الممنوعة . . أنا واثقة أن كل شىء على ما يرام . . لكنهم

---

استخرجوا بعض الأدوية الخاصة بالقلب، وقالوا: هذه أدوية مستوردة.. فكيف تستوردون الممنوع؟ لم أكن أعرف عنها شيئاً.. إنها أمور تخص صاحب الصيدلية ومديرها، ولا شأن لى بالتصرف فيها، ولكنه لم يكن موجوداً.. تصوروا لقد حققوا معى، وأخذوا الأدوية وحجزوها.. وسيأتون غداً لاستكمال التحقيق.. ماذا أفعل؟؟.. إننى أخاف من أى تحقيق.. حتى ولو كان تحقيق الشخصية..».

قال الشيخ علام العيسوى:

- «أنا لا أفهم شيئاً..».

تطوعت الدكتورة فضيلة بالشرح قائلة:

- «إنهم يا أبى يمنعون استيراد بعض الأدوية الأجنبية

لتشجيع المنتجات المحلية..».

قال بهدوء:

- «قد يكون منتجاتنا أقل فعالية ومستوى».

---

- «هو ذاك..».

- «ولا بد أن بعض المرضى يبحثون عن المستورد..  
والاهتمام بالصحة يفوق أى اهتمام آخر لدى أى  
مريض..».

ثم هز رأسه قائلاً:

- «هذا موضوع تافه.. لو أنتجنا الجيد لما تلهف الناس  
على الدواء الأجنبي..».

واستدار وانصرف، بينما هرولت الدكتورة فضيلة إلى  
التليفون، واتصلت بالمقدم زوج رنده، ويسعد أخيها، ثم  
فكرت بضع لحظات وطلبت خطيبها عادل فتوح فى  
التليفون، وجلسوا ينتظرون نتيجة المساعى المكثفة.

فى اليوم التالى كان الشيخ علام يضحك فى سعادة  
مباغطة، وخاصة بعد أن تجلت الحقيقة، إن أحد المسؤولين  
الكبار كان يريد الحصول على ذلك الدواء لاستعماله  
الشخصى بصفة عاجلة وعجز عن العثور عليه، ثم تفتق

---

ذهن البعض عن تلك الحيلة .. حيلة التفتيش .. والتحقيق  
الشكلى .. المهم أنهم حصلوا على الدواء ..

وهدرت سميرة فى غضب بعد أن تبين لها وجه الحقيقة :  
- «يا كلاب !! لقد كاد قلبى يقف ..» .

واتضح أن عادلاً استطاع بوسائله الخاصة أن ينهى  
الموضوع على الصورة التى أعادت الاطمئنان والهدوء  
لأخت خطيبته وبيتها ..

عندما قابلها فى قسم الباثولوجيا ، قال لها :

- «الذين لا يستطيعون التكيف مع الحياة المتغيرة  
ينقرضون .. هل تعرفين شيئاً عن نظرية «النشوء والارتقاء»  
للعالم الكبير «داروين»؟؟» .

كانت فضيلة فاترة حزينة ، فردت دون اكتراث :

- «أعرف يا عادل .. إنه يزعم أن الإنسان أصله قرد ..  
وهذه خرافة .. ما أكثر الخرافات فى العلم الحديث ..» .

وفوجئت بعادل يقول فى صفاقة :

---

- «عندما أنظر إلى وجه رشدى القصاص . . أتذكر نظرية داروين» .

ثم أخذ يقهقه كعريد . .

انتعض وجه فضيلة ، وقالت :

- «عيب . .» .

- «أهو درس جديد فى الأخلاق؟؟» .

ثم تلفت حوالية ، وهمس :

- «أين هو؟؟» .

- «لا أعلم . . إننى لم أره منذ يومين . .» .

قال وهو يتباله :

- «إذن فالإشاعة قد تكون صحيحة . .» .

- «أية إشاعة؟؟» .

- «أفبك من يكتم السر؟؟» .

- «لقد قبضوا عليه فى وكر سرى فى حلوان ، كان

يشارك فى تدبير مؤامرة هو والإخوان لقلب نظام الحكم . .  
ويقال أيضاً: إنهم عثروا على كمية كبيرة من السلاح  
والمنشورات ، وخطة لنسف الكبارى ومحطات الكهرباء  
والمياه والسينما . . وأمور كثيرة أخرى . . » .

وهتفت دون وعى منها:

- « أنت تكذب . . » .

لم يفعل أو يثر . . بل أخذ يعيث بأحد طرفى شاربه ،  
ورمقها بطرف عينه فى شىء من السخرية ، ثم أدار وجهه  
بعيداً عنها ، ودار بالكرسى نصف دورة ، وولى ذراعيه  
خلف المسند ، وقال دون ينظر إلى وجهها:

- « يمكنك أن تسألى الأستاذ رئيس القسم . . » .

ثم قال متثاقلاً ، ونظر إليها فى هدوء واستطرد وهو  
يحذرهما ملوحاً بسبابته اليمنى:

- « على فكرة . . لن تطلبى منى التوسط له . . هذه قضية  
مختلفة تماماً عن قضية أختك . . لا يمكن التدخل - بأى

---

حال من الأحوال - فى القضايا السياسية، أو التنظيمات السرية . . يمكن التوسط فى أى شىء إلا قضايا الإسلاميين . . مفهوم؟؟» .

بقيت وحيدة إلا من أساها العميق، لشد ما تتألم من أجل رشدى القصاص الزميل الطيب الأمين، وكادت تبكى من شدة الحزن عندما أكد لها الأستاذ خبر اعتقاله، بل إن الأستاذ ألح إلى رغبة المسئولين فى فصله من العمل بالكلية، ونقله إلى وزارة الصحة . . هذا إن خرج من المعتقل دون محاكمة أو حكم . . كانت تشعر نحو رشدى بمشاعر إنسانية خالصة، لم تفكر يوماً فى الزواج منه، فهى لا تحب إلا هذا الإنسان العجيب الغريب عادل، ولا حيلة لها فى الخلاص من هذا الحب . . إن عواطفها تستبد بها، ولا فكاك على الرغم من كل ما يجرى أو يثار حوله . . «آه يا أيها القلب العنيد» .

إنها تتذكر أيام الدراسة فى المرحلة الثانوية، كانت صغيرة مراهقة . . وكانت تخرج فى المظاهرات الصاخبة تهتف للثورة . . لمحمد نجيب فى البداية . . ثم الصدمة

---

المروعة بسقوطها.. واستعادت حماسها مرة أخرى،  
وأخذت تهتف لجمال.. الثورة هي مصر الجديدة.. هي  
الحرية والعدالة والتصنيع والصحارى التى تتحول إلى  
جنات.. والوحدة العربية.. والنصر على إسرائيل..  
وتصفية الإقطاع والطبقات الأرستقراطية.. الثورة هي  
مصر الجديدة.. لكنها بعد سنوات أخذ بدنّها يقشع لما  
تسمع.. إن حكايات التعذيب والانتقام ترجف القلوب،  
وروائح الفضائح والاستغلال والاعتصاب تزكم الأنوف..  
هل يعنى ذلك أن مصر الجديدة أكذوبة كبرى؟؟ لماذا يزداد  
الكبت، وتغلو الأسعار، وتشح السلع، وتأكل الدودة  
القطن، ويصرخ الفلاح فقراً.. لا.. لا.. إن كل شيء على ما  
يرام.. هذه مجرد فترة انتقال، وبعدها يرقص الناس فى  
مهرجان الحرية والرخاء.. السلع ستغرق الأسواق،  
والمصانع ستعمل بكامل طاقتها، والجيش سوف يسحق  
إسرائيل.. وأمريكا ستركع.. وساعة الزحف الثورى  
ستدق.. فتدق.. وستصبح مصر من جديد أم الدنيا..  
وقالت وهى تجفف دموعها:

---



- «رشدی القصاص لا يمكن أن يكون متآمراً.. إنه لا يملك إلا سلاح الكلمة..».

العالم يبدو أمام عينيها قبيحاً مخيفاً.. ما هو المخرج، أنفرتُ بنفسها خارج البلاد، بعد أن نالت دبلوم التخصص في الباثولوجيا؟؟ أتذهب إلى إحدى الدول العربية أو الأوروبية أو أمريكا للعمل بها بعيداً عن هذا العذاب؟؟ أغلق الباب على نفسها - سواء في البيت أو معمل الكلية - وتعيش في عزلة عن هذا العالم الرديء؟؟ أتسنى الطموح والمبادئ وتتزوج، وتعيش لنفسها وزوجها وأولادها، وتغمر في شعور البلادة والبرود واللامبالاة؟؟ أم تراها تخرج إلى الشارع وتصرح برفضها وتمرداها على أسلوب الحياة الجديدة البذيئة؟؟

عندما دلفت إلى مسكنها كان أبوها يقرأ في سورة سبأ بصوت رقرق ندى:

- «.. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ

بِجَنَّتِيهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أَكْلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ  
(١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ  
[سبأ: ١٦، ١٧]...».

وأخذت تستمع إلى الآيات التي يتلوها أبوها بعمق إلى  
أن قرأ: ﴿وَوَلَّيْنَا أَنفُسَهُمْ فَنَظَرْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ  
مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩]..

أغلق «الكتاب»، ونظر إليها في حب وجاءه صوتها:

- «لقد أخذوا زميلنا رشدى القصاص».

هز رأسه قائلاً:

- «أعلم».

- «وكيف عرفت؟؟».

- «كان أمام عيني».

- «هل كنت في حلوان؟».

- «بل في مسجد مولانا الحسين...».

- «يا إلهى . . لقد زعموا أنه ضالّ في مؤامرة . .» .

ابتسم الأب في حزن جليل، وقال:

- «إنه تلميذى، وأنا أعرفه . .» .

ثم اتجه صوب غرفة المكتب وهو يتمتم:

- «لعله يجد هناك الجواب . .» .



داخلته حيرة أخذة بتلابيبه، ولماذا لا يضطرب رشدي القصاص ويقع في بلبلة غامرة؟؟ فليس لديه أدنى سبب مفهوم أو معقول لما يحدث له، ابتداء الشك يساوره في نفسه، هل أقدم على فعل خطأ ما دون أن يدري؟؟ إن حياته بسيطة غاية البساطة، فوقته موزع بين الباثولوجي في الكلية، والصلاة في المسجد، والركون في بيته إلى القراءة أو النوم أو الطعام، نجاح في الدبلوم التخصصي، وبدأ العمل في الدكتوراة، حتى الطلبة الذين يدرس لهم بعض الدروس العملية البسيطة في القسم - بتوجيه من أستاذه - لا تربطه بأى واحد منهم صلة خاصة، وجيران السكن لا يعرفون عنه شيئاً يذكر وهو - أيضاً - لا يزور ولا يزار، وزملاء الدفعة الذين تخرجوا معه ذهب كل واحد إلى حال

سبيله، تفرقوا.. حتى الذين يعملون في الكلية قد يمر شهر أو شهران دون أن يلتقى مصادفة بواحد منهم، ورفاقه في القسم علاقته بهم علاقة عمل لا أكثر ولا أقل.. إن رشدى القصاص يتصفح كتاب حياته سطرًا سطرًا، بل كلمة كلمة، وليس فيه ما يؤاخذ عليه، لا ينكر أنه يرفض الكثير مما يجرى على الساحة العامة سواء على الصعيد الأخلاقي، أو السياسي، أو الاقتصادي، لكنه يمشى في طريقه على أساس القاعدة الذهبية «عليك نفسك»، مناقشاته الطارئة النادرة لا تخرج عن إطار الشرعية وتتسم بالتعقل والحرص، هو يعلم أنه يعيش في أتون الجنون؟؟ ومع ذلك فإن نظرات الشك والتربص تحاصره من كل جانب، والوجوه الكالحة المتحفزة تقيم حوله سوراً صليداً من الوعيد.

قال له المحقق:

- «تكلم.. إننى أستمع إليك..».

- «ماذا أقول؟؟».

- «قل أى شىء يخطر على بالك».
- «يخطر على بالى سؤال كبير!!».
- «ما هو يا رشدى؟؟».
- «لماذا أنا هنا؟؟»
- نظر إليه المحقق فى سخرية:
- «ألا تعرف؟؟».
- «والله لا أعرف..».
- قال المحقق محذراً:
- «لا مجال للقسم هنا، فنحن لا نصدق أحداً..».
- «وماذا أفعل لتصدقنى؟».
- «قل الحقيقة..».
- «قلت».
- اعتدل المحقق فى مكانه، وقال فى صبر نافذ:
- «أنت من الإخوان المسلمين..».

- «الإخوان حلَّت منذ أكثر من عشر سنوات . . يومها كنت طالباً فى الثانوية . .» .
- «لم تثبت أو تنف . .» .
- «أنا لا أنتمى لأى تنظيم» .
- «لكن التحريات تثبت غير ذلك» .
- «أتحدى أن تقيموا ضدى دليلاً واحداً . .» .
- «الدليل عندك . .» .

لم يفهم رشدى، تركه المحقق وخرج، ودخل ثلاثة من ذوى البنيان المتين، والوجوه المكفهرة، والعيون التى تتقد شرراً، هوت قبضة ثقيلة على رأسه من الخلف، دارت به الأرض، والتفت لكن لكمة أخرى نزلت على أنفه، وسرعان ما تدفق الدم على قميصه الأبيض، وجاءته ركلة محكمة على مؤخرته، قذفت به صوب المكتب الأنيق المعتم، وتكاثرت اللكمات والركلات، حتى سقط عاجزاً، وعيناه تدوران باحثة عن نجدة، تتمم:

- «أ يكون هذا هو الجواب يا شيخى الجليل؟؟» .

وعاد المحقق مرة أخرى . . قال فى دهشة مفتعلة :

- «ماذا تفعلون برشدى يا أوباش؟؟ إنه رجل محترم

ومن هيئة تدريس الجامعة . . وهذا أسلوب لا يليق به . .

اخرج يا حمار أنت وهو . . » .

قام رشدى متثاقلاً ، وهو يمسح الدم والدموع ، قال :

- «لعله مجرد سوء فهم . . » .

ابتسم المحقق ابتسامة غامضة ، وقال :

- «تعلم أن المباحث العامة لا يدخلها- فى العادة- إلا

المشبهون . . ولهذا فهم يهجمون كالوحش على كل

داخل . . يكفى أن يروا وجهاً غريباً . . » .

وعاد المحقق يقول بعد لحظة :

- «يبدو أنك لا تدرك يا دكتور طبيعة الموقف . .

وأظن أن هذه أول مرة تشرفنا فيها . . على العموم خذها



نصيحة منى و تكلم بكل ما تعرف ، وإلا فات الوقت ،  
وضاعت الفرصة ، وأتى الوقت الذى تفقد فيه القدرة  
على الكلام» .

قال رشدى محتقن العينين :

- «هل أنا متهم يا سيدى ؟» .

- «ولماذا أتينا بك إلى هنا؟؟ ألا تعرف أين أنت؟؟» .

تلقت رشدى حوله قائلاً :

- «فى الحقيقة لا أعرف . . لقد ربطوا عيني فى السيارة ،  
ولم يزيلوا العصابة إلا فى تلك الغرفة الضيقة . . » .

تنهد المحقق ، ثم قال :

- «أنت فى القلعة . . أعنى معتقل القلعة . . ألم تسمع  
عن القلعة وما يجرى فيها؟؟» .

تذكر الهمسات التى كانت تتوارى فى الظلام عن قصص  
الموت والعذاب ، وما يلاقيه المعارضون السياسيون ،

---

وأصحاب التنظيمات السرية المحظورة، ورشدى يعلم أن مجرد الحديث عن هذه الأمور جريمة فى حد ذاته . .

- «أنا يا سيدى رجل مشغول بعلمى وعملى . . حتى الصحف لا أقرأ فيها إلا العناوين الكبيرة . .» .

- «لكنك تقرأ الكثير فى كتب الدراسات الإسلامية» .

أفاق رشدى، وجمدت نظراته على وجه المحقق، وقال فيما يشبه الحلم :

- «نعم أقرأ فى السيرة والفقه والتفسير» .

فاجأه المحقق مرة أخرى، بالسؤال التالى :

- «أتقرأ كتب سيد قطب؟؟» .

- «تروق لى كتب التراث القديمة» .

- «والكتاب الجديد «معالم فى الطريق»؟؟» .

- «لم أره . .» .

- «ألم تسمع عن مجتمع «الصفوة» الذى يدعو إليه؟؟» .

---

قال رشدى متسائلاً:

- «مجتمع الصفوة؟؟ ماذا تعنى؟؟».

- «ألا تؤمن بأننا نعيش فى جاهلية كما يقول؟؟».

- «آية جاهلية يا سيدى؟؟».

- «جاهلية القرن العشرين . .».

شرد رشدى بضع لحظات ، ماذا يجرى هنا فى القلعة  
وفى الخارج؟؟ إنهم ينهشون كرامة الإنسان واحترامه لذاته .  
أترى كانت الجاهلية القديمة على هذا النحو؟؟  
- «فى الجاهلية يا سيدى المحقق لم ألفت إلى أمر  
كهذا».

- «إما أنك تتغابى أو أنك غبى بالفعل . .».

- «سلنى يا سيدى عن أسرار الباثولوجيا أجبك بسرعة  
وثقة . .».

- «وما هى الباثولوجيا؟؟».

- «علم الأمراض . . هذا هو تخصصى!!».

هز المحقق رأسه قائلاً:

- «وماذا وجدت في كتب التراث يا دكتور؟؟» .

- «ما تجده أنت . . ويجده كل الناس . .» .

نهض المحقق ، ودار حول مكتبه ، ثم أمسك بكتف  
رشدى ، وقال :

- «هل حكومتنا على باطل؟» ،

- «أنا لم أقل ذلك . .» .

- «ماذا تقول إذن؟؟» .

ها هي الدائرة تضيق ، والتحدى القاتل يأخذ بخناقها ،  
كلمة واحدة يقولها قد تنزل به أسفل سافلين ، أو تأخذ به  
إلى طريق النجاة ، ولمن يقول الحقيقة؟ للرجال الذئاب؟؟

- «وما قيمة رأى يا سيدى فى حكومة طردت المستعمر ،  
وبنت السد العالى ، وحطمت مظالم الإقطاع والرأسمالية ،  
ورفعت من قدر العمال والفلاحين؟؟ وماذا أقول عن  
الحكومة التى يسرت لى سبيل التعليم بالمجان ، وأعطتني  
الإعانات من الأوقاف؟؟ أنا لست منكرًا للجميل . .» .

---

قال المحقق :

- «ولماذا لم تنضم للاتحاد الاشتراكي . . ؟» .

هتف رشدي قائلاً :

- «بل أنا عضو عامل في وحدة مصر القديمة» .

- «صحيح؟؟» .

- «اسألهم . . » .

- «ولماذا قلت في البداية : إنك لم تنضم لأى

تنظيم؟؟» .

- «قصدت التنظيمات القديمة . . ما قبل الثورة . . » .

كانت ليلة طويلة عانى فيها رشدي الأمرين ، لم يذق النوم لحظة ، لقد أخذوه ضمن مجموعة من عشرة أفراد لا يعرف منهم أحداً ، بينهم طالب فلسطيني ، ونظموهم في طابور قصير ، وظلوا يجرون حتى تقطعت أنفاسهم ، وكان العسكري الذي يحرك الطابور يحمل في يده سوطاً ذا وقع أليم . . كان في قدرة رشدي أن يحتمل ، «العشور على

الجواب يا شيخى الجليل غالى الثمن جداً.. الحقيقة لا  
تكشف عن وجهها الساطع يا شيخى إلا عبر الأشواك  
والدماء والدموع.. لقد وجدت الجواب عن بعض  
التساؤلات، لكن هناك سؤال جديد محير يا شيخى  
الجليل، ألا وهو: لماذا يترك الله الظلم والظالمين على  
الأرض دون عقاب؟؟ قد تقول: إن العقاب فى الآخرة..  
وهل يمكننى - كإنسان محروم معذب مقهور- أن أنتظر  
وأنتظر؟؟ أشعر أننى فى عجلة من أمرى يا شيخى الطاهر،  
وأريد أن أرى بعينى رأسى فوراً مصارع الظالمين.. إنهم  
يقتلون القيم النبيلة بلا رحمة، ويتركون الإنسان مجرداً من  
مقومات الإنسانية، يتركونه جسداً بلا روح، بلا قلب، بلا  
حب كبير.. أشعر يا شيخى أنه لم يبق فى إلا الماكينة التى  
تأكل وتشرب وتنام.. أترى رشدى القصاص قد مات؟ لقد  
رمونى باتهامات غريبة.. زعموا أننى أجمع.. وأدفع  
التبرعات.. وأخطب ضد الحكومة، وأدبج المنشورات،  
وأشهر النكت السياسية، وأسخر من الكوادر الحزبية  
الأصيلة عندهم.. ساقوا اتهامات كثيرة لا حصر لها..

لكنهم لم يقدموا دليلاً واحداً على زعمهم . . وما زالوا يا شيخى يضربوننى، ويحقروننى، حتى كادت عزيمتى أن تخور تماماً، فصرخت فى احتجاج: هل خلقنى الله لهذا العذاب؟؟ ستقول لى يا شيخى - لو كنت معى - إنه امتحان أو ابتلاء . . نعم، صدقت . . لكن متى ينتهى؟؟ أحياناً أعتقد أن فى الموت راحة، لكن أين هو الموت . . علمنا هباء، وعملنا هباء، تضحياتنا هباء . . استغفر الله يا شيخى . . .»

- «أخذت رشدى سنة خفيفة من النوم، رأى الشيخ يجلس إلى جواره فى مسجد الحسين، ويمسح على رأسه ووجهه ويقول: «بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الْم (١) أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ

إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ﴿[العنكبوت: ١-٧]..

أفاق رشدى من غفوته، وتلفت حوالى، وانهمرت  
الدموع من عينيه، وأخذ يصيح:

- «صدقت.. صدقت.. أستغفرك ربى وأتوب  
إليك..».

واستعاد رشدى إيمانه التقى بمرور الأيام، لم يعد يكثر  
كثيراً لما يجرى فى القلعة، أصبح همه الأكبر أن يذكر الله،  
ويصلى ويفكر، ويترك الغد لمشيئة الخالق، هل فى يده شىء  
يستطيع أن يفعله، وكان معه فى الزنزانة فتيان.

قال أحدهما:

- «لقد اشتد بنا البلاء».

أغمض رشدى عينيه، وتذكر شيخه الطيب، وقال:

- «البلاء قُربٌ».



- «ومن يستطيع أن يحتمل هذا كله يا رشدى؟؟» .
- «المؤمن . . .» .
- «ألا يكون القرب إلا بالعناء؟» .
- «طريق الحب تكتنفه الأهوال . . إن كنت تحب حقًا فامض في سيرك ولا تهن . . .» .
- «أصبحت أكره . . .» .
- «الحب لله . . والكره في سبيل الله . . ذلك هو الإيمان، هل نسيت حديث الحبيب محمد ﷺ؟؟ كان يقول في معرض حديثه عن المؤمن «أن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وإن يكره المرء لا يكرهه إلا الله..» .
- «هذا زمان الأصفياء» .
- «الناس هم الناس» .
- «بل نحن في أسوأ عصر، وأبشع قهر» .
- «سلاحك الصبر» .
- «أفضل منه القبر . . .» .

أخذ رشدى القصاص يتطوح بمئة ويسرة، ثم قال :  
- «إنى أسمع أذان الفجر . . قوموا إلى الصلاة يرحمكم الله» .



أصبحت فضيلة غير قادرة على الهرب من التفكير فى شأن رشدى القصاص، كلما حاولت إبعاد صورته من ذهنها عادت إلى الإلحاح عليها من جديد، وما أكثر الذين يذهبون ويغيبون، ثم يعودون مرة أخرى، إنها - فى الواقع - لا تعرف المعلومات الكافية عن رشدى وقضيته، ومن يستطيع فى هذه الأيام أن يعرف الحقيقة؟؟ الصحف لا تكتب شيئاً، والمحاكمات السياسية تجرى فى الخفاء والأحكام تصدر سرّاً، ومن يتدخل فى أمر كهذا يجلب على نفسه المتاعب، ويوقع سلوكياته فى شبهة لا فكاك منها . . ومع ذلك فقد فاحت أباهما فى الأمر فلم تجد لديه قدرة على فعل شيء إلا الدعاء بالنجاة، وتحدثت مع المقدم زوج أختها رنده، فأفهمها أنه لو توسط فى أمر كهذا

لأحاله إلى الاستبدع إن لم يحاكموه، وأخيراً لجأت لسعد أخيها، كان سعد حزيناً من أجل رشدى، لكن الأمور - حسب ما يرى - تجرى فى غير صالحه، فالحكومة تعد ضربة قاسية ضد ما تسميه بالتيار الإسلامى المتنامى، وخاصة بعد صدور كتاب «معالم فى الطريق» وكتاب «جاهلية القرن العشرين»، وأنه من المحتمل جداً أن يعاد اعتقال كل من سبق اعتقاله منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن، بل هناك فكرة رهيبة تدعو إلى تصفية الإخوان المسلمين قتلاً وسحلاً دون محاكمات، وسيادة الرئيس فى اجتماعات الحزب يهد لذلك، ويحذر من الرجعية والثورة المضادة، وخاصة بعد الفشل فى حرب اليمن، وانفصال سوريا قبل ذلك، والأزمة الاقتصادية الخائفة التى تكاد تكتم الأنفاس . .

وكان لكلمات سعد وقع الصاعقة بالنسبة للدكتورة فضيلة لم تكن تتصور الأمر على هذا النحو من خطورة، إن معنى كلام سعد أن البلاد على وشك أن تغرق فى حمامات الدم، وأن هذه القسوة المفرطة قد تدمر البلاد ومستقبلها، ولا يمكن لوضع كهذا أن يستمر، وليس هذا هو الأسلوب

السليم للإعدادات المواجهة لإسرائيل وأمريكا . . وهل يستطيع  
شعب مجروح مقهور أن يحقق انتصاراً تاريخياً؟؟

قال سعد مجيباً على تساؤلها الأخيرة:

- «ولم لا؟؟ إن ستالين قتل الملايين من أعداء الثورة  
الشيوعية، ثم انتصر على الألمان . . وها هي روسيا إحدى  
الدولتين العظميين . .».

ضربت فضيلة كفأ بكف، وقالت:

- «أعترف أنني لا أستطيع فهم أى شيء فى  
السياسة . .».

وسادت فترة صمت وتفكير، قالت فضيلة بعدها:

- «هل يكفى أن تصنع الأسلحة الرهيبة، ونجد الخبز،  
ونحقق التقدم التكنولوجي لنكون سعداء؟؟».

- «وماذا يريد الإنسان غير ذلك فى هذا العصر يا  
دكتورة . .؟؟».

- «السعادة . . الكرامة . . الحرية . .».

---

- «ألا يأكل ويشرب، وينام، وينجب أطفالاً؟».

قالت فضيلة فى حنق:

- «تلك حياة العبيد..».

كان أبوها خارجاً من الحمام، وقطرات ماء الوضوء  
تتألق كالفضة من لحيته البيضاء ووجهه ويديه، وكان يتمتم:

- «يا لطيف.. الطّفُ بنا فيما جرت به المقادير..».





قال الدكتور عادل فتوح لها :

- «لا أستطيع يا حبيبتى أن أفعل شيئاً بالنسبة لرشدى ،  
لقد سبق السيف العذل يا فضيلة ، ثم لماذا تفكرين فيه ؟؟  
فليذهب إلى جهنم . . إنه تافه لا قيمة له . . » .

لم تشعر بالارتياح لكلماته القاسية ، لكنها اعتصمت  
بالصبر والحكمة ، لعلها تستطيع أن تقنعه بالتدخل لتجده ،  
همست فى رجاء :

- «لكنه مظلوم يا عادل ، وأنت تعلم . . » .

هدر فى غضبت :

- «هذا تصور عقيم ، إن لم يكن ساذجاً . . ماذا نعرف  
عن أسرار الآخرين ؟؟ إن رشدى وأمثاله يريدون أن يشعلوا

نيران الفتنة فى الدولة ، ويقضوا على منجزات الثورة . .  
وماذا تكون الخيانة العظمى إن لم تكن ذلك؟؟» .

تملأ عادل فى جلسته ، ثم طلب منها أن تكف عن هذا الحديث ، لقد جاء لدراسة الخطوات العملية للزواج وإتمامه فى أقرب فرصة ممكنة ، وأفهمها أنه اشترى سيارة «فولفو» شبه جديدة إذ لم يمض عليها أكثر من عام ، وأنه أخذها بثمان بخص من مزاد صورى ، وأن لديه من المال قدرًا لا بأس به يكفى للزواج والجهاز وشهر العسل ، ولديه الشقة الفخمة التى أخذها من الحراسة ، فضلاً عن بعض المشاريع التجارية التى تدر عليه دخلاً كبيراً ، ولم تمنع الدكتورة فضيلة فى بدء الاستعدادات ، وإن لم يبدُ عليها التحمس الذى كان يتوقعه فى مثل هذا الموقف ، لكنه لم يُعرِ الموضوع أدنى اهتمام .

لم يكن إعادة النظر فى إتمام الزواج أمراً سهلاً ، فالصورة تتغير من وقت لآخر ، فى بعض الأحيان لا تستطيع فضيلة أن تتابع ما يجرى وتستوعبه ، وعادل كالمادة الهلامية التى

تتخذ فى كل موقع شكلاً جديداً، وهناك الكثير من الأحداث التى يجب أن تتمعن فضيلة فيها، ما حقيقة العلاقة بين عادل وفضيحة الدكتور زكى فودة؟؟ إن قلبها يحدثها بأنه غارق حتى أذنيه فى الإثم، والشكوك التى تحيط بأسلوبه فى العمل السياسى أصبحت على كل لسان، ويكفى أن محيط العمل ومن يعملون فيه أصبحوا يتجنبونه، بل يخافونه، والطفرة الكبيرة التى تحققت له فى مجال المركز، والمال، والوضع الاجتماعى تثير الريبة، وقد أصبح جلياً أن معظم أفراد الأسرة لا يرتاحون لوجوده، ولا لمجرد ذكر اسمه، وإحدى الطبيبات الزميلات أفهمته بأن نادية عبد الباقي إذا ترك لها الحبل على الغارب فستكون سبباً فى تدمير سعادتها، لقد ذهب الرئيس القديم للقسم، وجاء رئيس جديد، ونادية ما زالت مسيطرة، ووضعها السابق لم يتغير، لم تزل مركز القوة.

كان على فضيلة أن تواجه نفسها بصراحة، وتحدد موقفها بكل وضوح، إنها تذكر أن أباهما قال لها ذات يوم: إن انتماء الإنسان هو الذى يحدد وجهته فى الحياة، يا لها

---



من عبارة، إنها تلبس الزى الشرعى، وتؤدى الصلوات، وتحافظ على سلوكها، لم تسمح لأحد -فى يوم من الأيام- أن يستبيح حماها، ولو كان عادل فتوح نفسه، لكن هذه الصورة العامة، وذلك السلوك المتحفظ لا يحدد لها انتماء أعلى.. ماذا تريد أن تكون؟ وما هو رأيها بالنسبة لمجتمعها ومستقبله؟ وما هو موقفها مما يجرى على ساحة الحياة فى هذا العصر الصاخب؟ ولماذا لا تشارك فى الأحداث قبولاً أو رفضاً؟ إن الاقتناع يتبعه العمل، والمشاركة، والاستعداد للتضحية إذا لزم، وأسرتها غريبة، التجانس والهوية تكادان تكونان مفقودين.. أخوها سعد صحفى مراقب.. على الحياد.. ويشارك فى اللعبة من خلال عمله الصحفى دون انفعال يذكر.. سيادة المقدم زوح أختها ملتزم التزاماً عسكرياً لا تردد فيه، شأن أى جندى، ولا يفكر فى فحص الأمور، وتبين الخطأ من الصواب.. إنه ينفذ الأوامر وكفى، وزوج سميرة طبيب النساء والولادة لا وقت لديه كى يفكر شىء آخر غير المستشفى صباحاً، والعيادة مساءً، والآخرون يسرون على النهج نفسه، إنهم يناون بأنفسهم

---

عن المشاكل ، طلباً للسلامة ، هم أشبه بجمهور المشاهدين للمهارة أو تراجيديا ، مجرد انفعالات وقتية أثناء التسلية ، ثم يعودون إلى الموقف الحيادي . . أما أبوها فهو الوحيد الذي عاش في الماضي لمبدأ ، وثار ضد طغيان الإنجليز والقصر في الماضي ، وآمن بآراء سعد واحترم زعامته ، وبعد أن خرج إلى التقاعد ، وقامت الثورة لم يكن راضياً عن الكثير مما يجري ، لكن رسالته في سنوات عمره الأخيرة تحولت إلى رسالة تعليمية ، إنه يعلم الأسس والمبادئ الأصلية ، ويترك لتلامذته الاختيار ، إن لهم حق التفكير والاستنتاج ، لم تكن لديه القوة لكي يصارع ويخوض المعارك ، لكنه كان مؤمناً أن الانتماء حياة ، وهو لا يقصد الانتماء إلى الأرض وحدها ، إذ ليس الانتماء - في نظره - عصبية جنس ، أو أسلوباً ظاهرياً في الملبس والقول ، إنه شيء عميق يرتبط بالقيم الإنسانية العليا ، والتفاني في سبيلها ، وليس أعلى ولا أعظم من قيم الإسلام العريقة . . ومع ذلك فإن أباه لم يحاول أن يفرض عليها رأياً ، كان يضيء الطريق ، ويترك لها الحرية كي تختار ، ذلك كان موقفه حينما طرحت قضية

خطبتها لعادل فتوح .. ولهذا لا يمكن القول بأن الأسرة كلها ليست على انتماء تام .. إنه انتماء - أيا كان الأمر - فى أضيق الحدود وأسلمها، لكن عادل ورشدى يختلفان .. عادل باع كل شىء، واعتنق الثورة، وخاصم الدنيا من أجل ذلك، هل هو صادق فى إيمانه؟؟ تلك قضية أخرى، أما رشدى القصاص، فهو - بحق - إسلامى الانتماء، لم يتزعزع أو يمالئ على الرغم من خطورة الاتجاه فى هذا العصر، كان حريصاً، لكنه لم يكن جباناً، وكان يعمل من أجل مبادئه، لكن بلا طيش أو رعونة، وكان يرفض الكثير مما تعج به الحياة الآثمة الجائرة، لكن فى تعقل وصبر، لم ينافق، أو يمالئ، بل قال كلمته فى كل موقف يُملى عليه قول الحق بأرق وأحكم الكلمات ..

- «وأنا .. من أكون؟؟».

سألت فضيلة نفسها، وكان السؤال حارقاً، بماذا تجيب؟ إن الزى الشرعى وحده ليس كل شىء، وإذا لم تكن لديها القدرة على تقديم التضحيات، ومواجهة

---

الزيف الصاحب بشجاعة، فإن عليها - على الأقل - أن لا تمدها لأبنائها في المستقبل، كي يتنفسوا الهواء النقي، ويسلكوا الطريق المستقيم، ويحرصوا على نظافة القلب والعقل والروح... إنها مسئولية ضخمة، والمسئولية في عنقها..

قالت لأبيها:

- «الخير تمزقني...».

- «تلك ضريبة المسئولية والحرية...».

- «ماذا أفعل؟؟».

هز رأسه قائلاً:

- «إنها قضية... وأنت القاضي... فاحكمي بالعدل».

- «وكيف أنطق بالكلمة الحاسمة وأنا في هذه

الخير؟؟».

- «ولا تقولي إلا بعد أن تتأكدي».

وصمت برهة، ثم عاد يقول:

- «ولا تنسى أن القاضى يحتاج إلى قرائن وشهود أو اعترافات فى ظل إجراءات صحيحة . .» .

هزت رأسه قائلة :

- «فهمت . .» .

- «تلك بداية طيبة . . اسألى الله التوفيق» .



انتظرت الدكتورة، فضيلة بعد الانتهاء من عملها عند موقف السيارات الخاصة، كانت الشمس مشرقة، ومن بعيد رأت نادية عبد الباقي قادمة بقدها المشوق، وجمالها اللافت للنظر، وفى يدها مفتاح سيارتها، وفى يدها الأخرى حقيبة سمراء أنيقة . . كانت نادية تفتح باب السيارة عندما برزت لها فضيلة . . وحينما التقت نظراتهما، ابتسمت نادية . .

- «أريد أن أتحدث معك بعض الوقت» .

قالتها فضيلة فى انفعال، وردّت نادية :

- «ولم لا وإن كنت أعرف ما تفكرين فيه .. أأست خطيبة الدكتور عادل فتوح؟؟» .

لم ترد فضيلة ، وعندما فتحت نادية الباب ، دلفت فضيلة دون تردد ، وجلست إلى جوارها ، قالت نادية :  
- ألا تخافين أن يراك أحد معي؟؟ .

ولكنها ظلت معتصمة بالصمت ، وأدارت نادية محرك السيارة قائلة :

- «ما هي وجهتنا .. بيتي .. أم كازينو؟؟» .

- «بل كازينو ..» .

- «أفضل أن نذهب إلى مسكني الجديد ، إنه قريب من هنا .. أنا لم أعود الجلوس في مكان عام .. وأظنك كذلك ..» .

وسارت السيارة ، وظلت نادية تتحدث :

- «الناس يهربون من مرافقتي حتى لا تلاحقهم الشائعات ، وتحوم حولهم الشكوك .. أعرف ذلك ، لكنني

لا أهتم به، أنا أرفض أن يتدخل أحد في حريتي الشخصية. . .».

لم تكتث فضيلة لشيء، كانت كل اهتماماتها مركزة حول معرفة الحقيقة، وذلك أمر يستحق الصبر والتضحية والمغامرة، عندما دلفت نادية إلى شقتها، قالت دون أن تلتفت إلى الدكتورة فضيلة :

- «الرجال يخطئون كثيراً في البداية، لكنهم بعد الزواج يصبحون شخصيات جديدة تماماً. . .».

أعدت فنجانين من الشاي، وقدمت واحداً لفضيلة :

- «وماذا يفيد النباش في الماضي يا دكتورة؟؟».

- «يجب أن أعرف. . .».

- «هذا ليس ضرورياً».

- «كيف؟؟».

- «لو قلت لك أن عادلاً ملاك طاهر فلن تُصدقني. . .

ولو قلت عكس ذلك فستظنين أنني أهدم ما بينكما من علاقة كبيرة. . .».

---

قالت فضيلة وهي ترتجف :

- «والحل؟؟» .

- «تزوجيه . . ولا تفكرى فى شىء آخر» .

- «على أى أساس؟» .

- «على أساس أننا نولد كل يوم» .

هزت فضيلة رأسها قائلة فى أسى :

- «فهمت» .

تمتت نادية :

- «إننى آسفة . . كثيراً ما تسير الأمور على نحو يصعب

التصدى لها، أو التغلب عليها . . لم أكن أعرف أنه خطيبك

فى البداية، ولماذا أخدعك؟؟» .

صرخت فضيلة ، والدموع فى عينيها :

- «ليس أنت . . إنه هو . . لماذا لماذا؟؟» .

- «أعرف أن امرى لا يهمك . . بل لا يهم أحداً . . كل

إنسان جزيرة . . جزيرة معزولة . .» .



أمسكت فضيلة بمعصم نادية في غضب، وقالت في غيظ:

- «لقد استطعت أن تفسدى كل شيء...».

قالت نادية في سخرية:

- «بل هم الذين أفسدوني...».

- «والشرف؟؟».

ضحكت في مرارة:

- «سفكوا دمه... وهل يفعل الذئاب غير ذلك؟؟».

- «تلقين باللوم على الآخرين».

- «لو كنت كاذبة لكذبت عليك».

- «كنت أعرف...».

- «ولماذا أتيت إذن».

- «لأؤكد...».

- «هل تأكدت الآن؟؟».

سددت إليها فضيلة نظرات مرهقة محمرة :

- «هل يحبك؟؟» .

- «لا أعرف . . الكثيرون يحبوننى . . أساتذة . . ضباط . .

رجال أعمال ، لم أجد من يرغب فى الزواج منى . .» .

دق جرس الباب . .

لم تصدق فضيلة عينيها . . إنه هو عادل . . «يا إلهى هل أنا فى حلم؟؟ كان يحمل زجاجة من الويسكى ، وكيساً ورقياً تفوح منه رائحة الشواء ، سقطت الأشياء من يده . . قال متعلثماً :

- «فضيلة . . لا تظنى بى الظنون» .

أشارت فضيلة إلى نادية قائلة :

- «إنها أشرف منك ألف مرة . .» .

تناولت فضيلة حقيبة يدها فى عصبية ، وهى تقول :

- «لم يعد هناك شىء يقال» .

جرى عادل خلفها وهى تهوّل خارجة . .

---

- «اسمعيني أولاً...».

وتابعها لدى الدرج، قال لها:

- «رئيس القسم الجديد هو...».

قالت فضيلة:

- «هو الذي سيأتي... وأنت تعد للقاء... يا لها من مهمة...».

- «لا تضيعي كل شيء...».

دفعته في صدره بعنف:

- «لا ترني وجهك مرة أخرى...».

توقف على الدرج، وماج برأسه الغضب، وهتف في تحد:

- «لن تفعلوها... ولن تستطيعي... ستدفعين الثمن غالياً...».

قالت ساخرة والدموع تبلل أهدابها:

- «هل ستكتب عني تقريراً للمباحث أنا الأخرى؟؟».

نزلت كلماتها كالصفعة على وجهه ..

وعاد مثاقلاً متهاكاً إلى نادية.

قالت :

- «لشد ما أتألم من أجلك».

- «دعى هذا الموضوع .. وصبى كأساً من  
الويسكى ..».

وكم كانت دهشته حينما سمعها تقول :

- «خذ أشياءك واذهب ..».

قال محاولاً إبداء عدم الاكتراث :

- «أتمزحين؟؟».

أمسكت بذراعه، ووأخذت تجره صوب باب الشقة :

- «اذهب وإلا صرخت وجمعت عليك الشامي

والمغربي ..».

تمتم في أسي :

- «هل أفهم أنى فقدت كل شىء؟؟» .

- «أفهم ما شئت . . .» .

حينما أصبح خارج الشقة ، وقفت نادية واضعة يدها فى  
وسطها ، وقالت :

- «أنظنتى غيبة؟؟ أنت الذى وشيت بى عند زوجة  
الدكتور فودة . . أنت أنذل مَنْ رأيت . . لقد أخذت بيدك  
يوماً ما . . لكن عقرت يدى . . وتظاهرت بالبغاء حتى تمر  
العاصفة ، وأخذ بشأرى منك . . إن الذى يبنى يستطيع  
بسهولة أن يهدم . . والرئيس الجديد للقسم مثل الرئيس  
القديم تماماً . . خاتم فى أصبعى . .» وشفقت الباب . .

رأى نفسه وحيداً ذليلاً . . اتجه صوب الدرج مرة  
أخرى ، واستند إلى سياجه . . وأخذ يهبط . . ويهبط فى  
حزن ووهن .





فى الزمن الخالى - فترات الفقر والذل - كان بإمكانه أن  
يحنى رأسه ويستسلم للهزيمة، فهو أعزل من كل سلاح إلا  
الصبر . . نعم صبر العاجز المقهور، أما اليوم فإن عادلاً لا  
يمكنه أن يقبل الهزيمة بسهولة، وما قيمة الحزب والمعتقد  
السياسى والمال إذا لم تهىء له سبيل الفوز بما يريد؟؟ إن  
لديه القدرة على أن يبطش بأعدائه ويسحقهم . . لكن ليس  
كل الأعداء إن فيهم من يمتلك قدرات تؤهله للصمود،  
وإفساد ما يحاك ضده، نادية عبد الباقي شيطان مريد، هى  
أستاذته فى فن الكسب غير المشروع، وتحقيق الآمال بأى  
طريق، ليس المهم نظافة الوسيلة، إنهما يلتقيان عند هذه  
النقطة، ما زال أمامه امتحان الدكتوراة بعد الماجستير التى  
نالها، هو فى حاجة إليها، وإلى رئيس القسم، ولهذا لا بد

أن يفعل المستحيل من أجل إرضائها، ولا بد أن يضع الخطة الناجحة التي توصله إلى ما يريد، كيف عرفت الملعونة أنه كان وراء الوشاية بأستاذه؟؟ نعم، فعلها حتى يتخلص منه إلى الأبد، وتصبح نادية له وحده، لم يكن يعرف أن نادية لديها سجلات، ولم يكن يتصور أن زوجة الدكتور زكى فودة سوف تندفع للقبض على زوجها متلبساً بجريمته . . ولم يكن الاستحواذ على نادية هو السبب الرئيسى لوشايته، لقد داخله شك بأن الأستاذ السابق قد يضرر له الشر، ويوقع به فى الامتحان فجأة . . مجرد ظنون، لكنها سيطرت على ذهنه بصورة ملحة، وما أن نجحت وشايته وأثمرت، حتى عاد الخوف يسيطر عليه، إن سقوط الدكتور زكى قد يقضى على آماله فى النجاح . . وهكذا غرق عادل فتوح فى هوة سحيقة من الخوف والحيرة، ولم يعد يدري ماذا يفعل . .

أما الدكتورة فضيلة فهى الجانب الآخر من المأساة، لم يكن يتصور أن يفقدها على هذا النحو المفاجئ السريع، هل المصادفة وحدها وراء ذلك الدمار الذى لحق بخطته؟؟ من

الصعب أن يؤمن بالمصادفة، على الرغم من تواجدها مع نادية في الوقت الذي يطرق فيه بابها، كانت نادية تعلم أنه قادم، فلماذا لم تتخلص من فضيلة؟ لماذا لم تتصل به هاتفياً لتطلب منه تأجيل الموعد؟؟ أهو انتقام خبيث دبّره نادية للأخذ بثأرها من وشى بها إلى زوجة زكى فودة؟؟.

إن كل ما جرى يعتبر هزيمة شديدة له بأي مقياس، ومع ذلك فلن يستسلم، سيحاول من جديد النهوض والوثوب، ليس في السياسة يأس -وهو رجل سياسى محنك- كما ليس فيها مبادئ، بل مصالح متبادلة، والجالسون على القمة يسفكون الدماء ليضمنوا البقاء على عرش السلطة، مع أن القتل أبغض الجرائم إلى الله.

لم يضيع الوقت في البكاء والنحيب والندم، بل أخذ يضمّد جراحه، ويعيد تنظيم قواته، ويجهز أسلحته لاسترداد ما فقدته من هيبة وثقة وحب.. كتب رسالة إلى الدكتورة فضيلة يشرح لها فيها الأمر من وجهة نظره.. كانت هذه الرسالة تشكل أهمية كبرى بالنسبة له:



- «... تعرفين حبيبتي أننى متمسك بحبك حتى النهاية، ولو افترضنا جدلاً أن القدر سيحول - لا قدر الله - بين آمالنا الكبرى فى الزواج، فسأظل وفيًا منتظرًا عودتك لى... وإن تعذر ذلك فى الدنيا، فلن أفقد الأمل فى الآخرة...»

إن ما حدث كان مجرد مؤامرة خبيثة دبرتها نادية عبد الباقى، وجميع من فى القصر العينى يعرفون حقيقة نادية عبد الباقى... إنها شيطان فى صورة امرأة... تصورى أنها عرضت على الزواج فى يوم من الأيام مستغلة صلتها بالأستاذ السابق!! اعتبرت ذلك جنونًا، فهى قبل غيرها تعرف وضعها وسمعتها الملوثة، ولم يكن ذلك الطلب العجيب إلا سخافة مضحكة... قلت لها: إننى خطبت الدكتور فضيلة من زمن، وإن الزواج قسمة ونصيب، ولم أشأ أن أجرح كبرياءها كأمراة... لكنها ألحّت فى الطلب... ولم يتغير موقفى يا حبيبتي... إننى مستعد أن أضحي بكل شيء، إلا أنت... هذه قضية حُسمت منذ زمن قديم... ولعلك تتساءلين ما الذى أتى بى إلى بيتها؟؟

لقد اتصلت لى فور وصولها إلى مسكنها، وأفهمتنى أن رئيس القسم الجديد سوف يتناول طعام الغداء عندها، وطلبت منى -نيابة عن الأستاذ- أن أمرّ على مطعم بعينه لإحضار الطعام الجاهز، وأنت تعلمين يا حبيبتى مدى سطوة الأساتذة، وعدم اللياقة فى الإفلات من مطالبهم . . لم يدر فى ذهنى أن أحقق رغبة بسيطة كهذه لأستاذى . . مهمة محددة ليس فيها ما يدعو إلى التردد أو التخوف .

عندما أتيت فوجئت بوجودك، لم أتصور قط أن أجدك فى مثل هذا المكان الموبوء . . إن فضيلة لا يصح أن تتنفس هواء مكان آسن كهذا، لكن كيف استطاعت أن تخذلك وتأخذك إلى هذا المكان، ذلك ما لم أستطع فهمه حتى الآن، إنك شديدة الحرص، وتعرفين ما يدور حول هذه المرأة من لغط، فأية ظروف أو ملابسات جعلتك تذهبين إليها؟ إن رأسى يكاد ينفجر . . ومع ذلك، فإن القضية واضحة غاية الوضوح . . لقد أرادت الشيطانة أن تفسد ما بينى وبينك حتى تحقق بغيتها، وأصبح لها وحدها، فأتزوجها، لم يتبادر إلى ذهنها أن ذلك من رابع

المستحيلات . . فالإنسان العاقل يريد لأبنائه أمّا فاضلة قادرة على أداء رسالتها الأسرية وفق الآداب الإسلامية السمحة ، وأنت يا حبيبتي مثل يُحتذى فى الطهارة والصدق والوفاء . .

أجيبني بصدق يا حبيبتي . . هل من العدل أن تصدرى ضدى حكماً بالإدانة لمجرد الشبهة؟؟ هل ثقافتك الدينية تؤهلك لمثل هذا التصرف؟ وماذا ستقولين أمام الله عند الحساب؟؟ هل امرأة كنادية عبد الباقي تقبل شهادتها شرعاً؟؟ إننى أَرْضى بمحاكمتك لى ، فالعدل يقتضى المحاكمة قبل إصدار الحكم . . واسألى أباك الفقيه الصادق عن هذا الأمر ، إننى متأكد أنه سيدلك على طريق الحق . .

حبيبتي . . أستحلفك بالله أن لا تدمرى حلمنا الجميل ، وحبنا الخالد ، فقد عشت طول حياتى أحلم بذلك اليوم الذى يجمع الله فيه شملنا فى بيت واحد ، تحت سقف الزوجية المطمئنة . .

وعلى أى حال ، فقد اتخذت قرارى ، ألا وهو الاعتصام

---

فى بيتى حتى يأتينى منك ما يعيد إلى نفسى سعادتها  
واستقرارها . . لن أذهب إلى العمل . . وسأجلس أقرأ  
القرآن ، وأدعو الله حتى تستجيبى لرجائى وندائى . . » .

خادمك المطيع

المخلص للأبد

عادل فتوح

كانت تقرأ الرسالة وهى جالسة فى مكتبها بقسم  
الباثولوجيا ، وضعت الرسالة فى حقيبتها ، وأغمضت  
عينها . . إنها تائهة لا تدري ماذا تفعل . . كانت قد حزمت  
أمرها على نسيانه وتجاهله إلى الأبد . . لكن كلماته زلزلت  
حزمها وإصرارها ، إن فى منطق بعض الصدق ، ليس من  
المستبعد أن تلعب امرأة مثل نادية هذه اللعب القذرة ،  
أليست هى التى استدرجتها إلى بيتها بأسلوبها الماكر؟؟ ألم  
تعترف نادية بأنها مطية لكل عابث يدفع الثمن؟؟ إنها امرأة  
بلا قيم ، باعت نفسها للشيطان ، وداست مبادئ الأرض  
والسماء ، فهل يكون غريباً منها أن تلفق الأحداث ، وتكيل  
التهم ، وتدبر المؤامرات ، لتلهو بأقدار الآخرين

---

وسعادتهم؟؟ ثم إن عادلاً له الحق - كل الحق - فى أن يدافع  
عن نفسه .

الواقع أن فضيلة شعرت بقدر غير قليل من الارتياح  
النفسى إن كلمات عادل ردت إليها اعتبارها كأثى ، وقضت  
على الكثير من الهواجس المحزنة ، وهى تجد نفسها ميالة إلى  
تصديقه . . بل يحب أن تصدقه . . إن الشك لم يتنف تماماً  
من قلبها ، لكنها لا يصح أن تخضع لتلك العواصف  
الداخلية التى تؤرقها . . إن مناقشة المسألة بالمنطق المجرد  
تجعل لعادل الحق فى أن يصور على مطالبه . . وعلى براءته  
أيضاً مما نسب إليه .

قالت فضيلة لأبيها وهى جالسة معه فى شرفة الدور  
العلوى تحت ضوء القمر الساطع :

- «حائرة يا أبى بين عقلى وعواطفى» .

رد أبوها فى هدوء :

- «من قال إنهما منفصلان؟» .

- «كيف؟؟» .

- «الهيكل واحد، والغذاء واحد، ونحن الذين نضع  
المسميات والتقسيمات. . الإنسان كيان معقد، لكنه  
واحد. . والله واحد. . والكون بأشجاره وأرضه وسمائه  
كائن واحد. . الوحدة سمة الوجود والحياة. .».

تململت فى مكانها، لم تعد تطيق التعمق فى الفلسفات  
والأفكار، إنها تخضع لردود الأفعال السريعة، لعلها تعرف  
تفسير ذلك كله من خلال دراساتها العلمية عن الجهاز  
العصبى. . فلتنس كل شئ عن طبيعة الحواس  
وانعكاساتها، والأحداث أو الأفعال وردودها.

قالت :

- «إن أمره يحيرنى».

- «الدنيا لغز كبير».

- «عادل هذا. . ماذا أقول؟؟».

- «قولى إنك تريدن الزواج منه برغم نقائصه. .».

- «وكيف عرفت يا أبى؟؟».

- «هذا بديهي؟ لأن الكمال لله وحده، والعصمة لأنبيائه...».

وقالت وعيناها مغرورتان:

- «ليت لي قدرة الكشف».

- «هذا بعيد المتال... عرفتكم المادة... لكن ماذا تعرفون عما وراءها».

- «وتلك هي المشكلة...».

- «وستظل مشكلة يا ابنتي».

- «والحل يا أبى».

- «اللجوء إلى الله...».

- «آمنت بالله...».

- «عندئذ ينبثق نور الحقيقة في داخلك، فتبدو الأشياء بصورتها الصحيحة».

- «متى؟؟».

- «آه... متى؟؟ العلم عنده».

- «لكنى أتعذب».

- «لكنه رحمن رحيم يا ابتى . .».

دخل عليهما سعد أخوها فجأة قائلاً:

- «تحدثون عن قضية الشرق الأوسط المستعصية . .

أراهن».

ابتسمت قائلة:

- «ليس فى رأسك غير السياسة . .».

- «إنها وظيفتى يا فضيلة . . ثم إننى لا أقصد الشرق

الأوسط بالذات . . أعنى الزواج . .».

قالت وهى تقرصه فى حب أخوى:

- «وكيف عرفت يا عفريت؟؟».

جرَّ أحد المقاعد الخيزرانية، وألقى بجسده عليه قائلاً:

- «فى الواقع الرجل يصعد . . وسيصبح نجماً فى سماء

الحزب والجامعة . . وهو محل للثقة . . وهذا يكفى . .».

شعرت بارتياح، وقالت:

---



- «هل غيرت رأيك؟؟» .

- «بل هو الذى تغير .. عادل هذا شاطر .. يعرف من أين تؤكل الكتف .. لقد تكيف بسرعة ..» .

قالت فضيلة :

- «التألق السياسى خطر ، وأى تغيير يحدث يهوى به من القمة إلى الحضيض ..» .

ربت على ظهرها فى ود قائلاً :

- «لا تخافى .. الزعيم قوى وثابت فى موقفه .. وهم مرتبطون برباط وثيق ..» .

قالت فى حيرة :

- «أردت أن أقول إن هذه الأوضاع ليست هى المقاييس الصحيحة للحكم على الزوج ..» .

- «إنها مقاييس العصر ، بعد أن صفّوا الإقطاع ، وقضوا على رأس المال الجشع ، وأمموا كل شىء ..» .

قالت : «ماذا تقصد؟» .

---

قال: «فى العهد الاشتراكى يكون الإيمان بالاشتراكية هو المقياس الذى يقاس به الرجال . . .»

تمتت وهى ترمقه بنظرات حادة:

- «المبادئ؟؟» .

- «كل مبدأ آخر معناه السجن . . وأنت تريدن زوجاً وأطفالاً وحياة حية . .» .

التفتت إلى أبيها قائلة:

- «ألا ترى يا أبى أن كل شىء قد فسد» .

قال ضاحكاً:

- «الصحافة أصل الفساد . .» .

رد سعد:

- «الصحافة عبد المأمور . . نحن نرقص فى الزفة . .

ونعلم ذلك جيداً يا أبى . .» .

عاد أبوه إلى الضحك قائلاً:

- «كان أفضل لك أن تكون تاجراً للبهايم . .» .

- «الجزارة أفضل .. كل الناس يشتهون اللحم ..» .

تثاءب الشيخ ، وقال :

- «البهائم .. الحلم .. الصحف .. كلها تجارة ..» .

كان أبوها مصراً على ترك الحرية الكاملة لابنته كي تختار ، ربما تعرف أكثر منه في هذا المجال ، وإمكاناتها أوسع ، وخبرتها أحدث ، لها عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، وعقل يفكر ويحلل ، وقلب يخفق ، ثم إنها لا ينقصها الحذر والتريث وإرادة الله العليا فوق كل شيء ، لشد ما يتألم لحيرتها !! لكنه لن يسلك غير ذلك الأسلوب الذي حدده بالنسبة لمستقبل أولاده الأسرى ، والشيخ علام العيسوى لديه الكثير من الثوابت ، لكنه لا يضاد التطور في أشياء كثيرة ، كل ما يعرفه أن البشر ليسوا ملائكة ، كما أنهم ليسوا جميعاً شياطين ..



لم تتردد فضيلة ، أدارت قرص الهاتف ، وقالت لعادل :

- «فهمت رسالتك .. متى نلتقى؟؟» .

- «يا لسعادتى!! فى الوقت الذى تحددينه . . .» .

حينما خرجت إلى الشارع، كانت تدق الأرض بخطواتها القوية الواثقة، لم تعد تخاف شيئاً، لقد أنضجتها التجربة، وهى تشعر أنها قوية، ويمكنها أن تتخذ القرار الذى تؤمن به دون مواربة أو تردد.

قال لها زوج أختها طيب النساء والولادة الناجح . :

- «علمتنى التجربة فى مجال الولادة المتعسرة أن أتخذ قرارى بسرعة وحسم : إن التلكؤ عندئذ قد يوقع الضرر بالأم أو الجنين وليس أمامى سوى احتمالات ثلاثة : إما المحافظ على كليهما معاً، أو بإنقاذ الأم، أو إنقاذ الجنين . . الأمر يبدو صعباً، إنه قرار خطير . . لكن لا بد من إنقاذ ما يمكن إنقاذه . . ومبألة زواحك يا دكتورة فضيلة أشبه ما تكون بالولادة المتعسرة . . هل لديك التصور الكامل لما أقول؟؟» .

وابتسمت أختها سميرة الصيدلانية هى الأخرى،  
وقالت :

- «أحياناً يكون الزواج كالدواء المر، لكن على المريض أن يتجرعه حتى يشفى...».

همست فضيلة في شروء:

- «أخاف أن تكون الجرعة قاتلة...».

...



استطاع عادل - كما بدا له - أن يستعيد غزاله الشارد بسرعة مذهلة ، لم يكن يتصور أنه قادر على ذلك الإنجاز الكبير بعدما جرى في بيت نادية عبد الباقي ، وقرر هذه المرة أن يعجل بالزواج ؛ لأن فضيلة هي الرصيد الحقيقي لحياته المقبلة ، إن لديه المال والمركز والمستقبل ، لكنها كلها - ويجب أن يعترف - كالرمال المتحركة ، لكن فضيلة ثابتة ثبات الطود الشامخ بكل ميزاتها المادية والمعنوية ، هذه أمور مستقرة في ذهنه لا تقبل الجدل ، وهي كذلك منذ زمن بعيد . . . وتبقى مشكلة نادية عبد الباقي ، هذه الشيطانة الملعونة التي يمكنها أن تربكه بمؤامرتها ومكائدها ، لو كانت صادقة فعلاً في علاقتها برئيس القسم الجديد ، فستمكن من وضع العراقيل في طريقه ، وخاصة بالنسبة للدورة العلمية الأخيرة التي

يتشوق إلى الحصول عليها، هل كُتب على عادل أن يلعب على الحبلين، ويحاول الاحتفاظ بفضيلة رفيقة المستقبل، وبنادية عبد الباقي ذات النفع المرحلى؟؟ إنها معادلة صعبة، ولا يعرف عادل كيف يمسك بأطرافها، ويتحكم فيها دون مخاطر. . . وحاول عادل أن يتقرب أكثر من أستاذه، لعله يستحوذ على ثقته ورضائه عنه، لكن الأستاذ حريص صامت، لا يستطيع أن يستشف من وراء كلماته وتصرفاته أى نوايا معينة، إنه كالسر الغامض المغلق، حتى معاملات الأستاذ مع نادبة هى الأخرى تتسم بالجفاف والرسميات المتعارف عليها، إنه لا يمزح معها أو يعاملها بشيء من الرقة والميل، ونظراته جامدة، لا عذوبة فيها ولا ميل، بل قلما ينظر إلى وجهها الجميل، ترى هل هذه الحقيقة أم أن وراء الملامح الجامدة قلباً يعشق، ومشاعر تعبت؟؟ لقد زعمت نادبة أن الرجل الجديد خاتم فى أصبعها، لكن أين القرائن والأدلة المقنعة؟؟ أترك الأمر للظروف، وينغمس فى عمله، ويعتمد على كفاءته وجهده؟؟ لقد علمته الأحداث أن هذه لا يكفى فى عالم تسوده النفعية والرشوة والأغراض

---

الدنيئة والوساطة، لماذا لا يتابع حركات الأستاذ، ويتابع نادية عن قرب كي يصل إلى الحقيقة، إنه لا يطبق أن يظل هكذا غارقاً في حيرته، ولم يقصر عادل في تقصى الأخبار، وتشتم الشائعات من الزملاء والعاملين في القسم، وكثيراً ما كان يذهب بنفسه ليراقب مسكن نادية، بل ويراقب الأستاذ نفسه في عيادته، وتتبع حركاته في كثير من الأوقات، واكتشف عادل أمراً في غاية الغرابة، أن الأستاذ غير متزوج هذه قرينة مهمة لا يمكن تجاهلها، إنه لا يعيش مترهباً.. لقد تزوج امرأة إنجليزية في لندن أثناء الدراسة، لكن الزواج لم يستمر سوى عامين، وتم الطلاق، دون أن ينجباً أولاداً، ومنذ ذلك الوقت لم يتزوج ثانية، ولم يعجز عادل عن استقضاء أخبار الأستاذ في الماضي والحاضر، ووصل إلى بعض الأخبار التي لا يعلم إلا الله مدى صحتها، منها أن زواجه من الإنجليزية انتهى بفضيحة لعلاقتها بواحدة من بنات جنسها، ومنها أنه شديد الحرص على ألا يقيم أية علاقات نسائية في دائرة عمله، وأن حياته الشخصية مجهولة تماماً، ولا يقيم معه في المنزل سوى طباح عجوز، يقوم إلى جوار



الطهو - بأعمال المنزل الأخرى من تنظيف وتنسيق . . وأنه لا يأبه للسياسة ولا يكثر لها، ولا يشارك في المناقشات التي قد تجرى في محضره . . كانت هذه المعلومات شبه كافية لعادل كي يصرف النظر عن نادية عبد الباقي، ولا يقيم وزناً لتأثيرها في مجريات حياته، ولكنه لم يقتنع بهذا التصور . . من يدري؟؟ قد تكشف الأيام عن قيام نادية بدور فعال في القسم من وراء الستار، وليس عادل بالشخص الذي يترك مصيره للظروف، فلا بد أن يعمل حساب كل شيء، وأن يتحوط لكل طارئ . . وقرر لا بد من العودة إلى نادية عبد الباقي . .

«أيها الأبله كيف تعود إلى الجحيم برجليك؟؟ وكيف تندفع إلى مغامرة جديدة تخسر فيها كل شيء؟؟ وماذا يحدث لو علمت فضيلة؟؟ إن نادية شريرة ولا يؤمن جانبها، فكيف تسلم لها نفسك مرة أخرى؟؟» .

هذا ما قاله لنفسه، لكن رغبته في العودة إليها جارفة كاسحة، هل كان الدافع إلى ذلك مجرد تجنب شرها، أو

الاستفادة من قدرتها على التأثير أم أن هناك دوافع أخرى لا تظهر على السطح، ولا يدري عادل كنهها؟؟

كان يراها فى القسم كل يوم، وكانت الجفوة بينهما تجعلهما فى شبه خصام دائم، وليس هناك ما يدعو إلى مخاطبتها إلا فى أمور تتعلق بالمرضى والعمل والتعليمات..

انتهاز فرصة وجودها وحيدة فى غرفتها ترتب بعض الملفات، ودخل عليها فجأة، كانت ابتسامته واسعة:

- «صباح الفل».

نظرت إليه فى دهشة، ثم ركزت بصرها مرة أخرى فيما أمامها من أوراق، وقالت باقتضاب:

- «صباح الخير».

اقترب منها أكثر، ثم وضع يده على الملفات قائلاً:

- «أكلنا معاً عيشاً وملحاً».

- «وما جزاء من يخون العيش والملح؟؟».

- «جزاؤه القتل . . .» .
- «أنؤمن بذلك يا دكتور؟؟» .
- أشار إلى عنقه قائلاً :
- «وهذا رقبتى . . فداؤك» .
- «ألم أقل لك : إن ما بيننا قد انتهى؟؟» .
- «إنى لا أصدق . . ثم إنى لا أستطيع . .» .
- ابتسمت فى استهتار قائلة :
- «أهو انتقام من فضيلة؟؟» .
- إدرك على التو أنها لا تعرف الصلح الذى تم بينه وبين فضيلة ، وسرّ لذلك ، إنه يسهل مهمته . . وتتم :
- «إنها تثير المشاكل . .» .
- وقالت وهى تلقى بجسدها على المقعد خلف المكتب :
- «ماذا تريد منى بالضبط؟؟» .
- قال فى خبث :

- «أريد أن تفتحي لى باب الجنة».
- «يا لك من داهية!!».
- «أنت لا تعرفين مدى السعادة التى أضفتيها على».
- ضحكت ، وقالت :
- «لكنك كنت ترنجف كالكتكوت أثناء التحقيق . . .».
- «كنت متوتراً . . لكنى تكلمت بثقة وقوة . . .».
- همست وهى تعض على شفتيها السفلى :
- «ما زال الامتحان بعيداً . . .».
- قال متصنعاً الصدق والإخلاص :
- «لا يهمنى الامتحان . . الذى يهمنى هو أنت!!».
- تنهدت وهى تهز رأسها :
- «هل اصطلحنا؟؟».
- اقترب منها أكثر وهتف :
- «بكل تأكيد . . .».

- «فليكن موعدنا فى العاشرة مساءً. .».

قال ضاحكًا :

- «أرجو ألا تكون هناك مفاجآت جديدة. .».

- «اطمن. . ستجد مفاجآت لذیذة الطعم. .».

قال وهو يلعب بحواجبه :

- «أحب الجمبرى. .».

- «تستطيع أن تحضره معك. .».



شعر بارتياح كبير حينما خرج من المكتب، إن الأمور  
تحل واحداً واحداً، وثقل الهموم ينزاح عن قلبه، ومعالم  
الطريق الصعب تتضح، ليفعل أى شىء حتى يؤمن نفسه،  
ويحقق غاياته، وبعدها يمكنه أن يتحرر من كل خوف  
وحيرة، ويتحرر من المجاملات المؤلمة، ويطلق كلمة الصدق  
فى وجه كل إنسان دون نفاق أو تردد، عندما يحقق هدفه  
سوف يولد من جديد، ويصبح حراً، لا مكان للحرية مع

ذل الحاجة، أو الخوف من الغد.. هل كُتب عليه أن يخوض فى الأحوال والأشواق حتى يحقق ذاته؟؟ وهل الناس مضطرون لفعل ذلك؟؟ «لكن هذا المجنون رشدى صاحب اللحية القصيرة ظل حتى النهاية متمسكاً بشرفه وكبريائه، ولم يحن رأسه أبداً، كان يرفض منطق المدارة والالتواء، لا شك أنه أبله ساذج، حماقته قذفت به إلى ما وراء القضبان.. لشد ما أكرهه.. كان يريد أن يتزوج فضيلة.. يا له من حقير!! وكان يفرض نفسه على أبيها، لم يستطع أن يستميل قلبها، فلف ودار باحثاً عن مدخل آخر، فكان المدخل أبوها.. الله.. الله.. إنه هو الآخر مثلى يناور كالذناب.. رشدى القصاص يشكل خطورة فى كل شىء.. فى السياسة.. والحب.. والمبادئ.. لهذا كان لا بد من زحزحته من طريقى.. أنا لم أظلمه أو أفتر عليه.. الأمانة - والأمانة وحدها - اقتضت أن أضع تقريرى عنه.. إن المسئولية التى أحملها فوق كاهلى تفرض على أن أكون حاسماً ومحددًا دون رحمة.. حتى زملائى القادة فى منظمة الشباب لم يسلموا من قلمى، إن فيهم ميولاً

---

وانحرافات لا يصح التغاضي عنها، وإلا ضاعت المنظمة..  
وضاع الحزب.. وبالتالي ضاعت البلد، ليس هذا  
فحسب، بل إنني اتفقت مع البعض لتكوين مجموعة خاصة  
تراقب المنحرفين في المنظمة، وتعمل على زحزحتهم من  
طريقنا حتى نتسلم زمام القمة.. العمل السياسي لا يعرف  
الرحمة..».

جاءته برفقة تطلبه على عجل؛ لأن والدته مريضة، هذا  
موضوع لا يمكن تأجيله، وخاصة أنه لم يزرها منذ فترة  
طويلة، إذا تخلف عن هذا الواجب، فيصبح مضغة في  
أفواه أهل القرية، وستغضب أمه وإخواته، أخذ يومين  
عطلة عارضة وركب سيارته وانطلق..

لماذا أصبح يضيق بالسفر إلى القرية؟؟ ولماذا لم يعد  
يحتمل أحاديث الفلاحين؟؟ ومع ذلك فإن هناك التزامات  
نحو الأهل لا يجب التفريط فيها مهما ثقلت عليه، وأمطرته  
بالملل والحنق، وتكاثر الأطفال والنسوة والرجال حول  
السيارة حينما توقفت أمام بيته الريفى الرث حياهم فى أنفة،

وصافح البعض، وهناك امرأة أصرت على عناقه وتقبيله  
وهي تقول: «يا ابن الرجل الطيب» تلقى قبلتها باشمزاز،  
ودلف مسرعاً إلى الداخل، كان البيت يبدو ضيقاً أكثر مما  
كان في الماضي، هل انكمش بفعل الزمن؟؟ أحد الأطفال  
ضغط على بوق السيارة فالتفت إلى السيارة في غيظ  
وهتف: «قلة أدب»، فاندفع المستقبلون نحو الطفل  
وأشبعوه ضرباً حتى استغاث.. واعتذروا للدكتور على هذا  
السفه.. ودخل الغرفة الشاحبة الضوء في وقت العصر..  
سمع صوتها الواهن:

- «هل جاء ولدي؟؟ كنت أعرف أنه سيأتي.. اقرب  
منى يا حبيبي..».

انزاحت النسوة الغارقات في السوداء عن طريقه، خطا  
صوبها في صمت وحزن:

- «أريد أن أقبلك وأضمك إلى صدري».

جثا على ركبته فوق الحصير المهترئ، ومال برأسه على  
وجهها، فأخذت تمطر بقبالاتها المتلاحقة، وهي تطوقه

---



بذراعها الواهنة، والدموع تغرق وجهها، وكاد يختنق فتخلص منها بركة . . قالت :

- «الآن شبعنا وارتويت . . بل وشفيت . . رؤيتك أعظم دواء . . » .

أعدوا له المقاعد الخشبية العتيقة فى الغرفة المقابلة وجلس مع بعض الفلاحين يشربون الشاي الأسود، وانتحى جانباً بأخيه أحمد خريج الزراعة الثانوية، والذي يعمل فى مديرية التحرير، ودس فى يده عشرة جنيهات، وطلب منه أن يشتري بعض الفواكه للضيوف الذين يتوافدون، وبعد ساعة جاء أمين الاتحاد الاشتراكي فى القرية وبعض الأعضاء والمدرسين والأعيان، إنهم على علم تام بالمكانة العلمية والسياسية التى بلغها الدكتور عادل فتوح . . وأخذوا يطرحون بعض الأسئلة حول الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهو يجيب بخبرة وحنكة شأن العالم ببواطن الأمور . . وجاء طبيب الوحدة الريفية بالقرية . . وهم عادل للترحيب به، فقد أخبروه أنه يسهر على علاج أمه وراحتها . .

قالوا له: إن أمه تريده.. ذهب إليها.. تمتت:

- «عادل.. ألا تفحصني؟؟ إنني متأكدة أنك لو فعلت  
فسأشفي تماماً من كل داء..».

لقد نسي أن يحضر أدواته الطبية معه، كان المفروض أن  
يكون معه على الأقل السماعة وجهاز الضغط  
والترمومتر.. لكن الأمر بسيط، فطبيب الوحدة معه  
حقييته، كان التشخيص أمراً سهلاً، الساقان متورمان،  
البطن يظهر عليها الاستسقاء، والوجه شاحب نحيل،  
والعيون غائرة، والجسد ضامر..

همس طبيب الوحدة بالإنجليزية في أذنه قائلاً ما معناه:  
إنها حالة تليف بالكبد نتيجة بلهارسيا قديمة، وأضاف: إن  
هناك دوال بالمرىء، وإنها نزفت وقاءت دمًا مرتين قبل  
ذلك، مما استدعى نقلها إلى المستشفى المركزي لنقل الدم.

قال عادل لطبيب الوحدة، وقد انفرد به:

- «ليس لنا في الأمور حيلة.. فلتواظب على مدرات  
البول والجلوكوز والفيتامينات و.. و..».

---

وقضى عادل الجزء الأول من الليل جالساً إلى جوار أمه، كان ينظر إلى الوجه الشاحب الصابر ويتألم، وأمه تتكلم... وتتكلم... ثم تغفو... ثم تعود للكلام... وهو لا يرد إلا نادراً...

- «كنت واثقة أن دواءك سيشفيني... هل أحضرت لى دواء معك من مصر؟؟ مصر أم الدنيا... يقولون: إن جوها يرد الروح... رحم الله أباك... كان قد وعدنى بزيارة أهل البيت هناك... لكنه مات قبل أن يتحقق الأمل... آه يا دنيا!! لم أكن أعلم أنك...».

أشار ولدها عليها بأن تستريح وتنام؛ لأن الكلام والسهر يرهقانها... وذهب إلى غرفة فوق السطح، بها سريره القديم، تعود أن ينام فيها كلما أتى... المصباح الغازى لم يتغير، والمصحف القديم يعطيه الغبار، وصورة «أبو زيد الهلالي» و«دياب بن غانم» ما زال على الحائط، وإن حالت ألوانها الصارخة... وفى الجانب الآخر سجادة صلاة قديمة معلقة عليها صورة الكعبة المشرفة... وهناك أيضاً صورته

الفوتوغرافية منذ أيام الشهادة الابتدائية . . لشد ما غيرته الأيام . . السرير نفسه ذو الأعمدة السوداء الأربعة والقبعات النحاسية الصفراء كما هي . . حتى قباقبه القديم هو الآخر ملقى تحت السرير . . آه . . هناك آية الكرسي المذهبة الخطوط تضيء على الحائط إلى يمين الداخل فوق المكتب الخشبي الكالح الذي صنعه له نجار القرية في الأيام الغابرة . . أين هذا المشهد العتيق من شقته الأنيقة التي يؤجرها مفروشة بألف جنيه في الشهر . . ألف جنيه . . عندئذ وثب من فوق السرير، وفتح حقيبتته وأخذ رزمة صغيرة من الأوراق المالية، ثم هبط الدرج، وقصد لتوه إلى حيث تنام أمه على الأرض فوق حشية باهتة اللون، وقال :

- «خذى هذا المبلغ لتصرفى منه . .» .

فتحت عينها فى سعادة، وتمتمت :

- «هذا كثير . . إنه مبلغ كبير . .» .

- «مائتا جنيه لا أكثر . .» .

هتف :

- «يا إلهي . . إننا نستطيع أن نشتري بها ربع فدان وجاموسة . .» .

- «هذه لتنفق منها . .» .

- «قد تحتاجها أنت . . إنها هنا مستورة والحمد لله . .» .

طول عمرها كانت تتكلم عن الستر وهو مصطلح عقيم  
يعنى الفقر والرضا بالجدب والحرمان . .

وعاد إلى السطح . . كان يشعر بقدر بسيط من الارتياح ،  
لعله استطاع أن يفعل شيئاً ، تطلع من النافذة إلى الظلام  
الدامس الذى يصبغ القرية النائمة ، وتذكر أمه النائمة أيضاً ،  
ثم ارتقى على السرير ، وانفجر باكياً . .



عاد إلى المدينة الكبيرة، تنفس الصعداء، أخذ يمضى بسيارته وسط الزحام الهائل، ومع ذلك يشعر بأنه فى عالم خاص منعزل، أما فى القرية فشعوره يختلف تماماً، كل شىء فيها يجذبه إليها من خلال خيوط قوية لا تتمزق، إنه جزء من كل، لا يمكنه الانفراد بنفسه، حتى ولو جلس وحيداً وأغلق باب الغرفة، القرية كوكب يدور بسرعة هائلة، وهو يدور معها، وفى المدينة هو كوكب وحده، ويدور حوله، إنه منغمس فى التنظيم السياسى، وعضو فى الهيئة التدريسية بالكلية، وله زملاء وأصدقاء، لكن حواجز نفسية عجيبة تعزله عن كل شىء، قد يأخذ، وقد يعطى فى حدود الحاجة الماسة، لكنه لا يندمج.. أبداً لا يندمج، إنه ينظر إلى الآخرين هنا بكثير من الشك والخوف والكرهية،

لا وجود للحب الحقيقي .. لأن الحب ذوبان واتحاد، ومشاركة فى أشياء كثيرة، إنه أشبه ما يكون بعابر سبيل فى هذه المدينة الصاخبة، وفضيلة مجرد امرأة مناسبة له، ولا بد من الاستيلاء عليها، ومن يأخذها منه سيقضى عليه ويفتك به، ونادية عبد الباقي وسيلة .. مجرد وسيلة، أحياناً يظماً إليها، وأحياناً أخرى يحتاج إليها، شباب المنظمة بعض رعاياه، مجرد أكتاف قوية يصعد عليها، ويهتف طلباً للجلوس على إحدى القمم العالية والناس يقدسون من يجلس على القمة، أية قمة .. مهما كانت، ولو كانت للسرقة والاستغلال والتسلط وتجارة المخدرات .. تجمعهم كلهم صفة واحدة .. القوة الغاشمة .. آه .. إن أمه تموت !! هل هناك من يشعر بعذابها؟؟ المصباح الغازى ينطفئ .. تذبل شعلته رويداً رويداً .. وليس هناك من يصدر بشأنها نشرة صحية رسمية، أو يستجلب لها كبار المختصين، أو ينشر أخبارها فى الصحف مثلما يحدث بالنسبة لنجوم الفن والسياسة والفكر، النجومية ليست

---

للفلاحين التعساء ، ولهذا ، فإنه من حماقة أن يبقى الإنسان  
فلاحاً . . ستموت يوماً كما يموت آلاف ، بل ملايين  
العبيد . . ونحن هنا نهتف للحرية ، ونناضل من أجل  
الشعوب المستبدة . . وبصق عن يساره فى الشارع . .

قالت له نادية عبد الباقي :

- « تأبى إلا أن تخذعنى . . » .

همس فى حزن :

- « أمى تموت . . » .

- « لم أعلم . . » .

ثم هزت كتفها فى استهتار :

- « الجميع يموتون . . لا راحة فى الدنيا . . أحياناً يكون  
الموت علاجاً لكل تعاسات البشر . . » .

- « لكنه يبقى دائماً مأساة مروعة . . » .

قالت دون انفعال :

- « ليس دائماً . . لو تعمقناه لوجدناه أمراً طبيعياً . . لا



ترك نفسك نهباً للأسى . . تعال إلى . . أنت في ميسس  
الحاجة للترفيه . . .» .

لم يعد يشعر بحماسة لأى شىء ، أين توهجه فى  
العمل ، وانتشاؤه وهو يقدم على إجراء جراحة مهمة؟؟  
وأين تلك الرجفة التى تسرى فى جسده وهو يعرف فى  
طوفان اللقاءات الآتية؟

قالت له الدكتور فضيلة :

- «بحثت عنك فلم أجذك» .

همس ودمعة تأبى الانفلات فى عينيه :

- «أمى تحتضر . . .» .

رفعت حاجيبها فى دهشة ، وبدا التأثير جلياً على  
وجهها ، وهتف :

- «كان الله معها . . ومعك . . لم أكن أعلم . . .» .

ثم أردف شاردًا بعد فترة صمت :

- «عندما تموت فلن يبقى لى أحد» .

ربت على كتفيه فى رقة قائلة :

- «الدنيا بخير . . .» .

قال وهو يركز على أسنانه :

- «أين هو هذا الخير؟؟» .

- «موجود . . دائماً موجود . . .» .

- «فى الأوهام . . .» .

رددت كلمات لرسول الله ﷺ :

- «الخير فى، وفى أمتى إلى يوم القيامة..» .

أخذ يجول بنظراته الحائرة فى الأفق الملبد بالغيوم،

وتمتم :

- «أراقت ماء شبابها . . عاشت تكدح . . لم ترى يوماً

باسماً فى حياتها . . وكم أراقت ماء وجهها أيضاً . . كانت

الحاجة تكبلها دائماً بقيود بخسة . . لقد أنهكها الفقر

والصبر . . وها هى تموت فى نهاية المطاف . . تموت وتطوى

صفحتها ولا يبقى لها فى الدنيا شىء ذو قيمة . . .» .

ابتسمت فضيلة متوددة ، وقالت :

- « لا تتكلم هكذا . . أنت لا تعرف معنى السعادة بالنسبة لها ، إننى أتخيلها ، والدنيا لا تسعها من الفرحة حينما تراك تنجح وتتفوق . . كنت أنت وإخوانك أملها وثروتها ونباتها الأخضر . . إنها لا تفهم السعادة على النحو الشائع من مال ومجد ومنصب . . من يدرى؟؟ قد تكون أسعد منا جميعاً . . » .

ذهب إلى اجتماعات الحزب فى السابعة مساءً ، كان اللقاء عاصفًا بسبب ما أسموه بالتحركات الداخلية المعادية ، وأصابع الإمبريالية التى تلعب فى الخفاء ، لم يكن مقتنعًا تمامًا بما يدور من حوار ، حاول أن يشرح ما يعاينه الفلاحون من ضيق فى الأرزاق ، وبوار فى المحصول ، وفساد فى الجمعيات التعاونية التى أنشأتها الحكومة للفلاحين ، وما تمتلئ به من انتهازية واستغلال ومحسوبية ، لكنهم أفهموه أن هذا الموضوع ليس مدرجًا على جدول الأعمال ، وأن أمن البلد الداخلى يفوق فى أهميته مثل هذه الأشياء الجانبية البسيطة ، وطلبوا منه أن يكتب تقريراً يتركه فى الأمانة العامة

---

حول موضوع الجمعيات التعاونية . . وعادوا يتحدثون عن عدد من المؤامرات هنا وهناك ، ويذكرون أسماء لا يعرف عنها إلا القليل جداً ، كما أخذوا يخططون لضربة قاصمة لهذه التيارات المعادية ، وإعطاء ذلك أولوية قصوى على ما عداها من القضايا الاقتصادية والسياسية الملحة . . وفهم أن الأوامر قد صدرت للصحف وأجهزة الإعلام بشن حملة ضخمة ضد الرجعية الدينية بالذات ، وملاحقتها أينما وجدت .

وأدرك وهو في الاجتماع - وفي أثناء الاستراحة - أن الزملاء يسخرون من اهتماماته الغريبة ، وينحون عليه باللائمة لانصرافه عن الجاد من أمور الثورة ، وولوغه في أمور مصطنعة ليس لها في الواقع ظل من الحقيقة ، وسرعان ما أفاق إلى نفسه ، وما إن بدأ الشطر الثاني من الاجتماع حتى طلب الكلمة ، وأخذ يفيض في الحديث عن الثورة المضادة ، وإن ما قيل عن مشكلة الفلاحين ما هو إلا مجرد إشاعات روج لها أعداء التقدم وعملاء الصهيونية ، وهو لم يطرح مثل هذا الموضوع إلا للتأكد من الدوافع الخبيثة وراء

هذه الحملة المغرضة من النقد لأحوال الفلاحين، واقترح أيضاً أن يتنبه الإعلام لمثل هذا الموضوع الحيوى، كما طالب بضرورة الضرب بشدة على يد الرجعية، والذين يخلطون بين الدين والسياسة، ويسخرون الدين لأغراضهم الخبيثة، كما دعا الأزهر الشريف أن يلعب دوره التاريخى الرسمى فى كشف مناورات المتاجرين باسم الدين، وأشار إلى أنه ليس الخطر من جماعة الإخوان المسلمين وحده، ولكن من كل من يمارس أى نشاط دينى حتى الجماعات الدينية غير السياسية، وفرق المتصوفة، بل ونشاط الكنيسة، وبعد أن انتهى من حديثه وجد ترحيباً بكل ما قال، فتنفس الصعداء، وتنهى فى ارتياح.. . لقد استطاع أن يركب الموجة، ويمضى فى الركب، ويستجيب لهوى القيادة وتصوراتها.. . وهذا هو المهم.. .

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة مساءً، واتجه بسيارته صوب العمارة التى تسكن فيها نادى عبد الباقي، حاول التراجع، لكنها لم يستطع، كان قلبه يدق، ويدها ترتعشان.. .

السقوط السياسى والسقوط الأخلاقى كلاهما من مصدر واحد..

ضغط على الجرس بقلب واجف.. على الرغم من خوفه إلا أنه يشعر أن شيطانه يدفعه إليها.. لم ينتظر طويلاً.. فتحت الباب بهدوء.. حينما وقع بصرها عليه تألقت ملامحها العجرية بالفرحة المباغثة.. اطمأن تماماً إلى أن الجو مهياً لسهرة خاصة، أغلقت الباب، ثم تلقفته بين ذراعيها فى جوع، كانت تلبس قميص نوم شفاف وردى اللون، يشى بمفاتنها الصارخة.. قادتة إلى المقعد كالذهول.. كانت زجاجة الويسكى.. والكؤوس.. والميزة فى الانتظار.. جلس يلهث.. غابت لفترة قصيرة، ثم عادت وفى يدها بعض الأشرطة الموسيقية الصاخبة..

تمتم وقد قذف بالكأس الأولى فى جوفه:

- «هذا هو العالم..».

ضحكت فى ميوعة قائلة:

- «لقد بدأت الفلسفة..».

خلع الجاكيت ورباط العنق، وألقى بهما جانباً..  
وقال:

- «الفلسفة في هذا العصر ليست فلسفة..».

- «وكيف؟؟».

- «الإنسان يبحث عن مبررات لحماقاته وملذاته، ثم  
يصوغها في كلمات وقواعد وأفكار، ويسمّيها فلسفة..».  
وقذف بكأس أخرى في جوفه، وقال وهو يضحك في  
هستيرية:

- «الفلسفة في خدمة الشعب..».

قالت وهي ترتب المائدة، وتصب في الكؤوس:

- «المهم أن ننسجم ونفرح..».

- «ويجب أن نفهم..».

قالت وهي تقرصه من أذنه:

- «فلنخرج هكذا دون أن نفهم..».

هز رأسه قائلاً:

- «صدقت يا نادية.. الناس يتخاطبون بوسائل أخرى غير اللغة..».

طوقت عنقه بذراعيها العاريتين، وقالت وهي تقبله:  
- «مثل هذا؟؟».

تتم:

- «شيطانة.. ورب الكعبة..».



ألقى بجسده قبيل الفجر فى نوم عميق.. عميق جداً  
كما لم يفعل من قبل، وصحاً مُصدّع الرأس، كانت الساعة  
قد تجاوزت الثانية عشرة ظهراً.. لم يجدها فى الشقة، وقع  
بصره على ورقة تحت نظارته الطبية، قرأها، فعلم أنها  
ذهبت لعملها فى الموعد اليومى لإعداد قائمة العمليات  
الجراحية، كما طلبت منه أن ينتظرها حتى تعود، وأن لا  
يفتح باب الشقة لأحد، ولا يرد على التليفون.

جلس إلى طاولة صغيرة عليها طعام الإفطار، «وترمس  
الشاي» أخذ يزدرد الطعام فى تكاسل، ويشرب الشاي، لم



يكن راغباً فى أى تفكير جاد، ولهذا تجاهل صحيفة الصباح الملقاة على المقعد المجاور، كما أثر أن لا يدير مفتاح المذياع أو التلفزيون، تطلع من النافذة إلى مدينة الدخان والضجيج والزحام، وتمنى أن يظل فى مكانه هذا لسنوات دون مسئوليات مثل تنابلة السلطان، يأكل ويشرب وينام ويمرح.. ليس لأى شىء قيمة سوى ما فيه من متعة وقتية.. الماضى يموت، والحاضر يصبح ماضياً، والمستقبل فى وقت من الأوقات سيمسى حاضراً فماضياً.. آه كل شىء إلى فناء.. إذا أعود إلى التفكير من جديد دون أن أشعر.. الموت نهاية كل شىء.. لكن الشيخ علام العيسوى قال لى ذات يوم: «الحياة هى الأصل، والموت شىء طارئ لأن بعد الموت حياة أبدية.. وزمن الموت قصير.. قصير جداً إذا ما قيس بالأبد.. والحياة الدنيا للإنسان أقصر..»، وتمثل بقول الله ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].. أى إيمان هذا.. إن فرائصى ترتعد كلما قابلت هذا الرجل.. ورشدى القصاص صورة مصغرة منه.. ترى ما مصيره

---

الآن؟؟ هل ما زال على عقيدته وهو يقاسى الأهوال فى المعتقل؟؟ ليتنى أزوره لأرى بنفسى!

أرهقه التفكير مرة أخرى ونغصه، حاول أن ينسى أو يهرب، ويبقى فى فراغ ذهنى.. كان يقاوم.. وهكذا أخذته غفوة لا يدري أطالت أم قصرت، وأفاق من غفوته على يد تهزّه فى رفق شديد، فتح عينيه ليرى نادية عبد الباقي واقفة قبالة، وكانت عيناه محمرتين، وكانت تنظر إليه فى إشفاق وهى شاحبة.. تتمم:

- «لماذا أتيت مبكرة؟ الساعة الآن الواحدة والنصف.. وأنت لا تأتين قبل الثالثة؟؟».

ظلت صامتة فترة، ثم مدت يدها، وأمسكت بيده وضمتها إلى صدرها فى قوة، وقالت:

- «تشجع.. أنت رجل..».

رفع إليها نظرات تائهة كنظرات طفل ضائع، وقال:

- «ماذا هناك؟؟».

أدارت وجهها صوب النافذة، وقالت بصوت حزين:

- «البقية في حياتك . .» .

صرخ وقدهب واقفًا:

- «أمي؟؟» .

قالت:

- «هذا قضاء الله . . عليك أن تذهب فوراً . .» .

ثم ألقت أمامه بالبرقية . .

أمسك بالبرقية، ثم انفجر باكياً ينشج . .





حظيت أمه -رحمها الله- بعدد كبير من رسائل النعى والبرقيات ونشرات الصحف ، لقد تلقى عادل العزاء من زملاء الكلية ، ومن رفاق منظمة الشباب ، وبعض الأصدقاء فى نقابة الأطباء ، كان مظهرًا لائقًا به ، يتفق ومركزه السياسى والعلمى ، وأبرقت إليه فضيلة ونادية ، حتى رئيس القسم قام هو الآخر بالواجب ، حينما مات والده لم يحدث شئ من هذا القبيل ، لو جمعت من الأموال التى أنفقت فى هذه المناسبة لكانت مبلغًا كبيرًا من المال ، كان يكفى للإنفاق عليه أثناء الدراسة ، ولما أُلجأه إلى وزارة الأوقاف ليأخذ منها الإعانة الشهرية ، والمقرئ الشهير هو الآخر تقاضى مبلغًا لا بأس به ، ناهيك بالسرداق الضخم المناسب الذى أقيم فى القرية ، والثور الذى ذُبِح لإطعام القراء والضيوف ، لو

كانت أمه حية الآن لعلّقت بأن ماتم تذييره كان يكفى لشراء فدان من الطين . .

وفى هذه الأثناء ابتدأت حملة العنف الدامية ضد من أطلق عليهم الرجعية الدينية المتأمرة، وكان الأمر الصادر بهذا الخصوص هو «اعتقال كل من سبق اعتقاله، أو المشتبه فى أمره».

وأخذ رجال المباحث العامة والمخابرات يفحصون الملفات القديمة والحديثة، وكانت الأولية لمن صدرت ضدهم أحكام سياسية منهم، ثم من شاركوا فى حرب فلسطين ومعركة القنال، على اعتبار أن هؤلاء يشكلون الفئة الأكثر خطراً على الثورة وأمن الدولة، ولم يفلت من الاعتقال أولئك المنشقون على الإخوان بسبب خلافات الرأى الداخلية، ولا من انحاز للحكومة من هؤلاء، وأخذ المعتقلون يتدفقون أنهاراً من كل الأنحاء تحت ظلام الليل، وفى رابعة النهار، وعلى عيون الجميع عصابات مربوطة بإحكام، وفى أيديهم الأغلال، واكتظت سجون طرة وأبو

زعبل، والقلعة، والحربى، وقنا، والفيوم، وغيرها  
بالأفواج التى تترى، وأقيم للنساء معتقل خاص بسجن  
القناطر لأول مرة فى تاريخ مصر.

ونشطت المؤتمرات السياسية الكبيرة التى يخطب فيها  
الرئيس والقادة، واشتعلت الحملات الإعلانية العنيفة،  
وأخذ الناس يرتجفون من الخوف، وانتشرت أخبار مرعبة  
عن قصص الانتقام الرهيب خلف القضبان، وأصبح  
الناس - كل الناس - يتوجسون خيفة من مجرد الصلاة فى  
المساجد، أو حمل كتاب من كتب الثقافة الإسلامية،  
وكانت الوسيلة المفضلة لكى يحمى الفرد نفسه أن يهاجم  
الإخوان بعنف، ويرميهم بكل نقيصة ورذيلة مثل ما يفعل  
الرئيس فى خطبه التى تذاع صباح مساء فى الإذاعة  
والتليفزيون، وتنشر فى الصحف، وحاولت كل أسرة أن  
تحيط شبابها بسياج من النصائح، وحملهم على البقاء  
داخل البيوت بعد العودة من العمل، ولم يعد أحد يجرؤ  
على زيارة أسرة معتقل من المعتقلين لمجرد المواساة أو  
العزاء، وتسابق أولياء الأمور إلى إحراق الصحف

---

والمجلات الإسلامية، كما كانت هذه الفتنة العمياء فرصة لأصحاب النفوس الضعيفة كي يشوا بخصومهم ومنافسيهم في مجالات التجارة والعمل والترقية، وخلال أيام قليلة تداعت قيم عريقة، وأصبح الجبن والرياء والنفاق سادة الأخلاق، وأخذت العدالة - كما قيل - عطلة لأجل غير مسمى، وطفأ على السطح حثالات الشيوعيين والإلحادين والصليبيين المتعصبين، ولم يعد في الساحة إلا موضوع الإخوان المسلمين وسيد قطب والهضيبي وأعوانهم، وتسابق الكتاب والشعراء والفنانون في إفراز سموم الكراهية والعداء، ولم يسجل حادث واحد للدفاع عن آلاف المغبونين المعتقلين.. وتبتدع الصحف مئات القصص عن مؤامرات لا يعلم إلا الله حقيقتها، ويتمرد الشك بين الناس، فيتحفظ الإنسان في أحاديثه حتى مع أهله وذويه، ويتبارون في الشناء على الثورة والرئيس والاشتراكية.. ومن العجيب أن بعض الناس أرادوا أن يبعدوا عن أنفسهم الشبهات، فتباهوا بارتكاب الموبقات، وارتادوا المراقص والحانات، والتجأوا

إلى الخمر والنساء كي ينعموا بالسلامة، وقررت وزارة الأوقاف قطع خطب الجمعة الموحدة لتوزيعها على جميع مساجد الدولة، وهى خطب تتغنى بمجد الثورة، وعصمة الرئيس، والخدمات التى تقدمها الثورة للإسلام، وأن الاشتراكية بدورها فى صميم المبادئ الإسلامية التى تحفل بالكفاية والعدل، كما أصدر الأزهر الشريف فتوى جامعة شاملة، تدين الفئة الضالة، وتحدثت الفتوى عن جزاء الذين يحاربون الله ورسوله، وهو: التقتيل، أو الصلب، أو تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو النفى من الأرض، وظهرت على شاشات التليفزيون شخصيات باهرة مبهرة تتحدث فى بلاغة ورصانة عن الرجعية الدينية، وعن عمالتها للصهيونية والإمبريالية، وذاعت أغنيات عبد الجليم حافظ، وعلى رأسها أغنية «دقت ساعة العمل الثورى»، وأخذت الفتيات المراهقات يطلبن السماع للأغنية فى «ما يطلبه المستمعون»، أما أسر المعتقلين التعساء، فقد لاذوا بالصمت، ولجأوا إلى مساكنهم، وأغلقوا أبوابهم محزونين مقهورين لا يُعبّرون

---



إلا بالدموع والدعاء، وأصبحوا كالفئة المنبوذة التي يوشك  
ألا يقربها أحد..



دخلت فضيلة على أبيها فجأة، فهاها أن رآته يقرأ  
القرآن ويبكى بحرارة، هزتها دموع الشيخ الجليل، وجثت  
إلى جواره فى دهشة:

- «أتبكي يا أبى؟؟».

قال والدموع تنهمر:

- «عينان لا تمسها النار.. عين بكت من خشية الله،  
وعين باتت تحرس فى سبيل الله.. وكيف لا أبكى وأنا على  
أعتاب الوحيل..؟».

أخذت تجفف دموع أبيها الغالية، بمنديلها الأبيض  
وتقول:

- «أطال الله عمرك».

- «وما قيمة عمري إذا لم أعد أستطيع إلا سكب  
الدموع..؟».

---

- «لقد أديت واجبك».

- «أو تستطيع الدموع يا ابتى أن توقف الظلم، أو تساند  
المظلومين المقهورين؟؟».

قالت وهى تحاول أن تصرفه عن البكاء:

- «هل أنت متعاطف مع الإخوان المسلمين؟؟».

- «وكيف لا أتعاطف مع الإنسان.. الساكت عن الحق  
شيطان أخرس...».

تلملت فضيلة، ثم قالت:

- «نحن لا نعرف الحقيقة...».

قال بثقة وشجاعة:

- «لو كانت إدانة الإخوان أكيدة، لحاكموهم علانية،  
وما لجأوا إلى الجلسات السرية، والتعذيب الرهيب،  
ولأتاحوا لهم الفرصة للدفاع عن النفس، ليس هناك صحيفة  
واحدة، ولا رجل واحد تجرأ أن يدافع عنهم... وكل  
الاعترافات المزعومة باطلة- يحكم القانون- ما دامت قد

انتزعت بالإكراه.. أسألى زوج أختك سيادة المقدم عن ما  
يجرى فى الحربى والقلعة.. إنهم يقتلون الحب،  
والانتماء، وكرامة الإنسان..».

وصمت الشيخ بضع لحظات، ثم عاد يقول:

- «لقد عاصرت الخديوى والإنجليز.. والمملك فؤاد  
وفاروق.. وثورة ١٩١٩، ولم أشهد قوة ولا عنفًا كالذى  
يجرى الآن.. أهى رجعة إلى عصور الغاب؟؟ تلك هى  
الرجعية الحقيقية يا ابتى.. من يزعم أن هؤلاء آدميون؟؟».

تمت فضيلة:

- «سوف أعد لك فنجانًا من القهوة..».



كانت فضيلة فى هذه الأيام تتابع الصحف باهتمام بالغ،  
إن الأمر يشد انتباهها بصورة شديدة، إن كاتب الأهرام  
«هيكل» يكتب فى صفحتة الأسبوعية تحت عنوان  
«بصراحة» عن أخطر كتابين صدرتا فى العام الماضى: «معالم

فى الطريق»، و«جاهلية القرن العشرين» القضية كبيرة، ولو لم تكن كذلك، لما حشدت الحكومة هذا الاهتمام كله، ليتها تستطيع أن تقرأ هذين الكتابين، لكن هذا مستحيل؟ لأن تداولهما ممنوع، ومن يمسك به مقتنياً لهما فسوف يساق إلى المعتقل... لا فرق بين رجل وامرأة فى ذلك... وكيف تصدر حكمها على ما يقال من نقد وهى لم تقرأ الأصل؟؟ السلطة وحدها هى القادرة على الإتهام والنقد والتحدث، لكن المتهمين لا دفاع لهم، ولا أرى، ولا صوت... إنها معركة غير متكافئة، والظلم واضح... وهى تشم فى الكلمات الرسمية رائحة الغدر والخيانة...

سألت أخاها سعداً، قال فى فتور:

- «فى مثل هذا الزمن يصعب العثور على الحقيقة...».

قالت فى غضب:

- «أنعيش فى ضباب؟؟».

- «هذا أسلم...».

- «بل هو أسوأ ما فى الحياة . .» .

قال وهو يرفع رأسه إلى وجهها المتوتر :

- «هناك حقائق كثيرة نعرفها ، وهذا يكفى . .» .

قالت متسائلة :

- «مثل ماذا؟؟؟» .

- «مثل . . آه . . مثل الفيتامينات ضرورية فى الغذاء . .

مثل الموت حق . . الصبر طيب . . القوة فوق الحق . .

التطعيم يحمى الأطفال من الجدري ، ومن شلل الأطفال . .

الباثولوجيا علم نافع . . أليست هذه كلها حقائق؟؟؟» .

لم تترحم لكلمات أخيها ، إنه يهرب من طرح القضايا

الملحة التى تشغل الأذهان ، شعرت بالضيق والغيط ،

قالت :

- «هناك حقيقة أخرى نسيت أن تذكرها . .» .

- «نحن على أبواب كارثة هائلة . .» .

قال لها فى استفزاز :

---

- «لم تأت الكارثة بعد، ولهذا فلا يمكن تسميتها حقيقة...».

صرخت محتدة:

- «ألا ترى؟؟؟ ألا تسمع؟؟».

- «وما جدوى أن أرى أو أسمع؟ إن الأمور تمضي في طريقها المرسوم... والحقائق يصنعها الأقوياء، مثلما يصنعون التاريخ، والأحداث، والفلسفات، والقوانين، والفنون، ومصانع السلام، وتصفية الإقطاع، والقضاء على الرجعية...».



التقت بالمقدم زوج أختها ريندة؛ طرحت أمامه العديد من التساؤلات، كان عزوفاً عن الكلام، ولما ألحت عليه قال في ملل ظاهر:

- «الإخوان وباء خطير... تصورى يا فضيلة أنه من رحمة الله ألا يوجد في أسرتنا هذه واحد منهم؛ لأنه لو حدث ذلك... لكانت كارثة... أقلها أن يطردونى من

الجيش ، إن لم يلقوا بى فى السجن الحربى . . والحديث يا عزيزتى فى أمور كهذه محظور تمامًا بالنسبة لأفراد الجيش . . إنه مثل أسرار الدولة العليا ، وإذاعة شىء عنه خيانة . . » .

قالت فى دهشة :

- « لكن الصحف تكتب . . والتليفزيون يصور . . والإذاعة ترغى وتزيد . . » .

- « وأنا لست رجل إعلام يا عزيزتى . . » .

- « فقط أردت أن أسأل : لماذا يعذبون المعتقلين . . ؟ » .

قال فى صبر نافذ :

- « إنهم يحققون معهم . . » .

ثم صاح ضائقًا :

- « يا رندة . . أنقذنى من أختك فضيلة . . » .



سألت عادل فتوح :

---

- «ما رأيك فيما يجرى؟؟» .

ابتسم فى غرور، وقال :

- «ألم أخبرك به قبل أن يحدث؟؟ ألم أقل لك ذات يوم يجب أن تنسى شيئاً اسمه «رشدى القصاص»؟ إن كل شىء مرسوم بدقة، ومخطط له . . عبارة واحدة يجب أن ترسخ فى ذهنك، إن أمن الدولة فوق كل اعتبار . . .» .

تمتمت وهى تكتم غضبها :

- «ذئاب!!» .

عاد يضحك فى تشفٍّ، ويقول :

- «إن لم تكن ذئباً، أكلتك الذئاب . . .» .

زمت شفيتها، وقالت :

- «ماذا يكون موقفك، لو كنت الآن واحداً من هؤلاء المعذيين . . .» .

رد بقوة وثقة لا حدود لها :



- «هذه سقطة لا يفعلها إلا أحمق، الإنسان السوى الطبيعى لا يتدنى لهذا المستوى».

وأفهمها أن الأمر انتهى، وأن الفتنة نامت للأبد، وأصبحت الأوضاع مستقرة، والمسيرة الثورية تواصل عطاءها الإنسانى العظيم، والخونة يلوون أحزانهم وأساهم فى جحور الندم والصمت والظلام، وأعداء التقدمية لا مجال لهم فى عصرنا، وأخذ يردد العديد من الشعارات التى تقرأها فى الصحف، وتسمعها فى وسائل الإعلام، حتى أوشكت أن تتقيأ..

توقف فجأة عن الاستطراد فى الحديث، ثم قال:

- ما هذا؟؟ لقد جئت لأمر آخر..؟.

ولمّا لم تحب استمر فى حديثه:

- «لا بد من أن نحدد موعد عقد القران.. الوقت مناسب جداً الآن..».

قالت دوغما حماسة تذكر:

- «تستطيع أن تقابل أبى».

---

- «متى؟» .

- «فى الوقت الذى تراه . . .» .

- «فليكن الخميس . . بعد غد . . أرجو أن تخبريه . .» .

حينما عادت فضيلة إلى البيت ، وجلست مع أبيها ،  
طرحت موضوع القران ، وحضر أخوها وإخواتها البنات  
وأزواجهن ، لم يتكلم أبوها فى البداية ، لكن بقية أعضاء  
الأسرة رأوا أنه لم يعد هناك مجال للتأجيل ، وخاصة أن  
عادلاً لديه كافة التعلقات الخاصة بالزواج . . الشقة . .  
المهر . . السيارة ، لكنهم فوجئوا بالدكتورة فضيلة تقول :

- «لكنى مترددة . .» .

هتف الجميع فى دهشة :

- «كيف؟؟» .

قال وهى شاردة :

- «لا أدري بالضبط ، لكنى لا أخفى عليكم أن تغيراً طرأ

على نفسى . . لم تعد مشاعرى نحوه كما كانت . .» .

قالت سميرة الصيدلانية :

- «المسألة مسألة عقل . . .» .

- «حتى عقلى هو الآخر . . .» .

هتفت رندة أختها :

- «هذه تصرفات مراهقة . . .» .

التفتت إلى أبيها فى حيرة ، وقالت :

- «ما رأيك يا أبى؟؟» .

- «أبوك قال كلمته من قديم . . ومضى . .» .

تشبّث بذراعه فى ضراعة ، وقالت :

- «ستكون كلمتك هى الفيصل . . إن وافقت فسيتم كل

شئ على الفور ، وإن رفضت ، فستكون نهاية القصة . .

إننى أقولها من كل قلبى . .» .

هز رأسه قائلاً :

- «أوه يا حبيبتى . . لقد ثقلت عليك المسئولية . . وها

أنت تعودين كفتاة ريفية ساذجة تسلم الأمر لولى الأمر . .

فكرى يا حبيبتي حتى الغد . . وفى المساء سنعقد الاجتماع  
العائلى النهائى بهذا الخصوص . . لكن لا تنسى أنك  
مستولة . . » .

ذهبت إلى الكلية يوم الأربعاء، جلست وحيدة فى  
مكتبها بقسم الباثولوجيا، الشحوب يظل وجهها النقى  
الجميل، وفى عينيها الفاتنتين آثار أرق وحيرة، تذكرت  
الدكتور عادل . . دق قلبها وهى لا تدري لماذا، حتمًا سيأتى  
إليها بعد ساعة ليتأكد من تثبيت وعد الزيارة المهمة الحاسمة  
مساء الغد . .

جرس التليفون يدق . . لا شك أنه هو . . هى تشعر  
بعدم الرغبة حاليًا فى الرد . . لكن الجرس يدق بإلحاح . .  
رفعت سماعة التليفون فى تكاسل :

- «الدكتورة فضيلة علام . . نعم أنا . . آه . . أهلاً يا  
ست نادية . . خير . . ماذا تقولين؟؟ مستحيل! لا بد وأن  
تكون إشاعة . . أو أكذوبة كبرى . . » .  
ألقت بالسماعة وكأنها فى حلم . .

- «هل ممكن أن يحدث هذا؟؟» .

لو اعتقلوا العالم كله ، فلن يعتقلوا الدكتور عادل  
فتوح . . مستحيل . . مستحيل . . لكنها تزعم أنهم أخذوه  
أمام عينيها ومن بيتها . . من بيتها؟؟ كيف؟؟ وماذا كان  
يفعل هناك مرة أخرى؟؟ أيكن أن يكون بوليس الآداب؟؟  
لكنها أكدت لى أن المخابرات هى التى اعتقلته . . » .

وأخذت فضيلة تتحسس فمها وعينيها وأنفها ، ثم تنظر  
حولها لتأكد أنها لا تحلم . .



اتسع نطاق الاعتقالات ، فعلى الرغم من أن الغالبية كانت من الإخوان المسلمين ، إذ يشكلون ما يزيد عن ثمان وتسعين فى المائة ، إلا أن هناك مجموعة من الوفديين ، والشيوعيين ، والرأسماليين ، وبعض الجماعات الدينية الأخرى القليلة العدد ، وقد قبض أخيراً على مجموعة أطلقوا عليها فى المعتقل اسم «مجموعة كمال الدين حسين» عضو مجلس الثورة السابق ، وبضعة أفراد من منظمة التحرير الفلسطينية ، الإسلاميين منهم ، وثلاثة أو أربعة من ضباط الجيش لا يعرف عنهم أحد شيئاً ، ثم هناك أفراد اعتقلوا دونما أى انتهاء لجماعة ، أحدهم يكتب الزجل ، وثان ألف كتاباً يمتدح اتفاقية ١٩٣٦ ، ويشنى على سعد

زغلول والنحاس، وثالث كان يجرى وراء سيارة الرئيس  
ليقدم له التماساً.

وبقى اعتقال الدكتور عادل فتوح لغزاً من الألغاز  
المحيرة، حتى الصحفي سعد أخذ يضرب كفاً بكف،  
ويعجب لما جرى، وكان يرجع أن اعتقال عادل ربما كانت  
نتيجة لبعض الصراعات الداخلية في المنظمة، وتصفية  
لحسابات حزبية وراء الستار، وكان هذا التفسير المعقول  
آنذاك، وتتم الشيخ علام العيسوي قائلاً: «كالنار تأكل  
نفسها إن لم نجد ما تأكله... والهرة تأكل بنيتها خوفاً  
عليهم...».

وشعرت أوساط القصر العيني بالارتياح، إن لم يكن  
الشماتة، فقد عانوا من عنجهية عادل وتهديداته طويلاً حتى  
كرهوه، وإن أخفوا تلك الكراهية وراء ابتسامات المجاملة  
والخوف، وأخذوا يثرون الشائعات حول اعتقاله، فمن  
قائل إنه جاسوس لإسرائيل، وهناك من زعم أنه شيوعي  
متطرف، ويقول البعض أنه «متأمرك»، ولم يستطع أحد أن

يتوصل فى البداية إلى الحقيقة المؤكدة ولا غرابة فى ذلك ، فالغموض يلف الكثير من الأمور ، لكن الحقيقة رواها أحد المعتقلين الذين أفرج عنه بعد ثلاثة أسابيع من اعتقال عادل ، فقد حمل رسالة سرية إلى الدكتورة فضيلة بتوقيع عادل ، أخبرها فيها بأن سوء الفهم هو الذى أورده هذا المورد التعس ، وأفصح عن اعتقاله هو ومجموعة من أصدقائه تضم شاباً أردنياً يعمل محرراً فى وكالة أنباء الصين الجديدة ، وكاتباً شهيراً للأغاني ألف الكثير عن الثورة والرئيس ، وكتب مئات القصائد السعبية فى أكبر المجلات المصرية ، وناقداً شاباً يظهر كثيراً فى المتديبات والندوات الأدبية ، بل ومن الطريف اعتقالهم لشاب يشغل منصباً مهماً فى منظمة الشباب ، ويمت بصلة قرابة إلى وزير الداخلية الحالى ، ومعهم أيضاً عضو قديم فى الحزب الشيوعى المصرى ، وعدد من مراسلى الصحف الأجنبية ، وكانت التهمة الموجهة إليهم - كما كتب عادل - تتركز فى تشكيل تكتل سرى داخل التنظيم الحكومى ، للترويج لأرائهم وأفكارهم ، ودفع الاشتراكية خطوات سريعة إلى الأمام ،

---



والتخلص سياسياً وسلمياً من العناصر المعوقة التي تستظل بقوة السلطة الحاكمة وهيمنتها، ولم يؤخذ على عادل سوى أمور تافهة لا يمكن التعويل عليها، مثل بعض الآراء والعبارات التي كانت تصدر عنه، أو بعض اللقاءات الخاصة العرضية، وفي ختام رسالته أكد لها أنه لن يبقى في المعتقل طويلاً، وأنه سوف يعود إلى موقعه السياسى والعلمى، وكان واضحاً في رسالته أن يزداد تشبهاً أكثر من أى وقت مضى بحبه لفضيلة، وأنها هى أمله الأول والأخير، وأنه مستعد أن يحارب الدنيا كلها للظفر بها . .

وبعد فترة من الزمن استطاع سعد أن يتوصل إلى المعلومات نفسها التي بعث بها عادل إلى فضيلة، وعلق قائلاً:

- «إن أجهزة الأمن والاستخبارات كثيرة ومتنوعة، ولا يخلو منها لى موقع . . ولهذا كثيراً ما تتضارب وتتصارع . . ولا يوجد فى مصر كلها من يمتلك حصانة تحميه من شرها . . الحصانة فقط لهذه الأجهزة . . » .



حينما ألقى القبض على الدكتور عادل فتوح انفجر صاحكاً، كان متأكداً أن ما يحدث ناجم عن خطأ أكيد، وأخذ يشرح للفرقة مكانته في المنظمة، والاتحاد الاشتراكي، والكلية، لكنهم كانوا تمائيل صماء باردة، لا تجيب ولا تتفعل، أمامهم أمر صريح، ولا بد من تنفيذه، وأدرك على التو أنهم ليسوا من «المباحث العامة» الذين يعرفهم، فسألهم عن هويتهم، فلم يجيبوا بشيء، وأبدى تخوفه من أن يكونوا عصابة تسعى لخطفه، لكنهم ملوا حوارهم، ولم يعد لديهم بقية من صبر، فجذبه أحدهم بعنف واحتقار، ووضع الأغلال في يديه، وجروه جراً إلى خارج شقة نادبة عبد الباقي وهي تقف في ذهول، دون أن تنطق بكلمة واحدة.

جری العرف فی «سجن القلعة» أن يستقبلوا كل وافد بالضرب والبذاءة مهما كان شأنه، ولا يقدم للتحقيق إلا بعد الانهيار التام، وفقدان كل أمل في النجاة، وحينما انهالت الصفعات والركلات والسياط على عادل فتوح تدفقت الدموع من عينيه... وكان يصرخ في هستيرية «أنا أخلص

المخلصين للشورة . . أنا الذى ضحيت بكل شىء من أجلها . . أنا رجل منكم . . » ، وكان هناك « صول » كالح الوجه ينظر إليه فى احتقار ، ويغمغم : « لسنا فى حاجة إلى أمثالك . . الخيانة فى دمك » . . وأخذ عادل يدق رأسه فى السور الحجرى ، ويصرخ من جديد « مستحيل . . مستحيل . . إن هناك أموراً لا يمكن فهمها ، ويردد الصول فى برود : « لقد سئمنا هذه الأسطوانة » .

كانت الليلة الأولى بالنسبة لعادل قاسية رهيبة ، لدرجة أنه فكر فى الانتحار بجدية وصدق ، لكنه لم يجد شيئاً يقضى به على نفسه ، وأدرك لأول وهلة الفرق الشاسع بينه وبين المعتقلين من أصحاب المبادئ ، إنهم يجدون العزاء ، ويعتبرون العناء والعذاب قرينة إلى الله ، أما هو ، فإن الأمر يختلف . . لقد قبضوا عليه فى بيت مومس ، ورائحة الخمر تفوح من فمه ، وثيابه وجسده ملوثان حتى الآن ، حتى مبادئ الثورة التى آمن بها - أو تظاهر بالإيمان بها - لا تبدو ذات قيمة الآن ، وليس فى سجله سوى التقارير السرية التى قذفت بالأبرياء إلى المعتقل ، والخطب الرنانة التى كان

يترغم ، والشعارات التي يرددها ، والمكاسب المادية التي يحققها . وهذه كلها أبعد ما تكون عن جلب العزاء لنفسه المحزونة المنهارة ، إن لم تكن تضيف إليه مزيداً من التعاسة والشقاء .

الزنزانة تكاد تطبق بجدراتها وسقفها فوق صدره ، والليل يبدو وكأنه يضغط على عنقه بقبضة حديدية ، والأفكار البائسة تموج في رأسه كبركان . . ترى هل كانت حياته كلها خطأ في خطأ؟؟ وعاد للبكاء من جديد . . ما أكثر ما يبكى في هذه الوحدة القاتلة !! إلى متى بطل حبيس هذا القبر؟؟ إنه يكاد يجن . . والنوم يجافيه تماماً ، وفي منتصف الليل فتح باب الزنزانة ، وأدخل شاب في الخامسة والعشرين من عمره تقريباً . . كان هادئاً باسمًا على الرغم من لهات أنفاسه . . تتمم القادم :

- «السلام عليكم . .» .

رد عادل في تباطؤ وعزوف :

- «وعليك . .» .

---

ألقى القادم بصيرة صغيرة يبدو أن بها بعض الملابس،  
وقال:

- «كان الله معك . .» .

لم ينطق عادل، وعاد القادم يقول:

- «أخوك سعيد البواب، خريج دار العلوم . .» .

وظل عادل معتصماً بالصمت، وبعد بضع دقائق قال  
سعيد:

- «ألديك ماء؟» .

- «لا . .» .

- «هل أنت من الإخوان . .» .

صاح عادل في حدة:

- «لا . .» .

- «شيوعى؟؟» .

- «اسكت . .» .

- «لا بد أنك «فئات أخرى» . . أليس كذلك؟؟» .

أدار عادل وجهه إلى الحائط، وتمدد وظهره صوب زميله، كان يرقد بالسروال والقميص . . فوق لوح خشبي متسخ . . بينما قام سعيد، وتيمم، ثم أقام الصلاة، وأخذ يصلى العشاء . . وبعد قراءة الفاتحة فى الركعة الأولى، تعمد سعيد أن يرفع صوته قليلاً وهو يرتل : ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه : ١١١-١١٢] .

ووجد عادل نفسه منجذباً إلى سماع القرآن وهو راقد . . هزته الكلمات . . يا إلهى !! لم يكن يعرف هذه الآيات من قبل، وكيف يعرفها وهو لم يفتح المصحف منذ أكثر من عشر سنوات؟؟ .

وشعر عادل بقدر من الارتياح لوجود هذا الرجل معه، إن الحبس الانفرادى ثقيل ومؤلم . . لسوف يتحدث إليه بعد صلاته . . إن هذا الانغلاق الذى يطوى نفسه داخله لا فائدة

---

منه . . لكن الباب فتح من جديد . . وسمع عادل فى الظلام صوتًا أجش يقول :

- «سعيد البواب . . تعال . . مطلوب فى الحربى يا حبيبى أتعرف معنى السجن الحربى؟؟» .

وخرج سعيد . .

وبقى عادل وحده مرة أخرى ، إنه يشعر بحزن شديد لفراق سعيد الذى لم يقض معه إلا دقائق . . لماذا كان جافًا معه؟؟ لشد ما يحس بالندم الشديد!!

وقضى عادل ورفاقه فى القلعة أسبوعًا . . هذه الأيام السبعة كانت بالنسبة له تساوى العمر كله ، الجراح على أنفه وجبهته ، وخطوط السياط الدامية منتشرة على جسده . . لقد اتسخت ثيابه ، وطال شعر لحيته وشاربه . . ورائحة عرقه تقززه . . ثم تم ترحيلهم إلى السجن الحربى . . لتبدأ فصول المأساة من جديد . . ضرب . . تحقيق . . تحقيق . . ورأى فى الحربى الأعاجيب . . ألوان شتى من البشر والجنسيات والتنظيمات . . وهناك أباطرة التعذيب الذين

تسرى أسماؤهم كالأساطير بين الناس منذ سنين . . إنه يراهم رأى العين . . ومرت أيام عشرة . . ثم أخذوهم إلى معتقل «مزرعة طرة» تنفس عادل الصعداء . . وجد الجو هادئاً، والسجانون يستقبلونه لأول مرة دون إيذاء أو سباب . . وكم كانت دهشته عندما رأى بعض المعتقلين بأرديتهم البيضاء القائمة يروحون ويجيئون دوغماً حرج أو توتر، وحينما دخلوا أحد العنابر الكبيرة رأى عادل آلاًفاً من البشر يمرحون ويضحكون . . سأل عادل أحدهم :

- «من أنتم؟؟» .

- «ألا تعرف من نكون؟؟ نحن الزبائن الدائمون للمعتقلات . .» .

وعرف عادل أنهم من الإخوان المسلمين، وأن هذا المعتقل يطلقون عليه معتقل «المتحفظ عليهم» أو بمعنى آخر الذين لم يقدموا للحماكمة لعدم العشور على تهم لهم، لكنهم عند دخولهم فى البداية مروا بالتجارب المريرة . . تجارب الفحص والتصفية والتحريرات والتحقيق . . ثم

---



أودعوا هنا حتى يحكم المسئولون فى أمرهم . . وأحياناً يطلب أحدهم ويرسل إلى الحربى أو القلعة إذا كان هناك ما يستوجب ذلك . .

قال عادل لأحد الإخوان :

- «هل عندكم خبز وسجائر؟» .

- «عندنا خبز فقط ، وسأحضره لك على الفور عندما تصل إلى غرفتك . .» .

وعاد عادل يسأل فى تحفظ :

- «أليس معكم معتقل اسمه رشدى القصاص؟؟» .

ابتسم الرجل ، وقال :

- «الدكتور؟؟» .

- «نعم هو . .» .

- «إنه يساعد طبيب المعتقل فى المستشفى ، وقد يأتى بعد ساعة . . هل تعرفه؟؟» .

قال عادل فى فرح :

- «زميل عزيز . . إنه أعز صديق . .» .

كانت الأوامر الصادرة أن يوضع عادل ورفاقه في غرفة خاصة بهم، ولا يوضعون مع الإخوان، إن كل فئة يجب أن تكون منفصلة عن الأخرى، وأطلق على عادل ورفاقه المعتقلون الشيوعيون، وقال عادل في ضيق للعسكري:

- «لكنني لست شيوعياً . .» .

- «تلك هي الأوامر . .» .

اغتسل عادل في دورة المياه، ثم لأول مرة يأكل بشهية على الرغم من أن الطعام الذي أحضر له لم يكن سوى الخبز والجن، وبعد أن شرب الماء ألقى بجسده فوق «البرشن»، وأغمض عينيه وهو يفكر في رشدى القصاص . . ترى هل يعرف رشدى أن عادلاً هو الذى أوقع به، وكتب عنه التقارير السرية المتألية؟؟ بل إن عادلاً يعترف بأنه أوعز إلى بعض زملائه ومرؤوسيه فى التنظيم كى يرفعوا تقارير مشابهة ضد رشدى حتى تتعدد المصادر، ويضيق عليه الخناق، لقد كانت جريمة رشدى فى نظره أنه فكّر فى

الزواج من فضيلة، وقبل ذلك كشف سر المعونة التي تقدمها وزارة الأوقاف للطلبة الفقراء.. إن عادلاً يشعر بالتضاؤل.. بل بالخسة والنذالة، لقد وهب الله سلطة على نحو ما، فاستغلها لإيذاء الأبرياء، هل أجرم رشدى حينما فكر فى الزواج؟؟ وظل عادل يستعرض ذكرياته السوداء، وضرباته الظالمة ضد العدو والصديق على حد سواء، ويتذكر لياليه الحمراء فى مخدع نادية عبد الباقي.. إنه يعترف بينه وبين نفسه أن هذه التصرفات هى جريمته الحقيقية، وليست تلك الشبهات السياسية الفارغة التى أتت به إلى هنا، يبدو أن الله قد أراد أن ينتقم منه بالأسلوب نفسه، فحرك فئة من زملائه فى المنظمة والحزب كى يسطروا التقارير ضده، فيقع فى ما أوقع فيه غيره من مآزق.. إن ما مضى قد مضى، ولا حيلة له فى محو الرذائل التى صنعها بحقه وغبائه.. واستغرق عادل فى نومه.. ولا يدرى هل طال به النوم أم قصر عندما هزته يد حانية برفق، وفتح عينيه ليرى أمامه رشدى القصاص بوجهه الشاحب الطاهر الباسم، ولحيته السوداء الصغيرة، وعينيه الواسعتين اللتين تشعان إيماناً ونوراً وسعادة.

---

وثب عادل من مرقدہ ، وطوق رشدی بذراعیہ ، وأخذ  
یضمہ إلى صدرہ فی حب حقیقی :

- «أهو أنت یا رشدی؟ الله وحده یعلم کم أنا سعيد  
بلقائك.. أشعر الآن أن كل شر قد زال ما دمت معی..» .

تتم رشدی بصدق :

- «محنة وتزول..» .

وانفطت دموع عادل ، وقال :

- «لقد ثقلت ذنوبی.. وكان لا بد أن أشرب من الكأس  
نفسه..» .

قال رشدی وهو یربت على كتفه :

- «یغفر الذنوب جميعاً.. إنه هو الغفور الرحیم..» .

لقد شعر عادل بارتياح كبير ، كان کمن یسير فی صحراء  
جرداء ليس فیها سوى القیظ والعواصف والوحوش ،  
والرعب یلاحقه من كل جانب.. أما الآن فقد انزاح عن  
قلبه الهم والغم ، رشدی إلى جواره ، وهذا منتهی

---

الاطمئنان والأمان، هو يعلم أن رشدى مجرد معتقل مثله، لا يملك من أمره شيئاً، لكن نظرات رشدى وكلماته ومواساته تحمل إليه أروع العزاء ..

- «متى نخرج من هنا يا رشدى».

- «ما المسئول عنها بأعلم من السائل ..».

- «هذا ظلم .. ظلم لا مثيل له ..».

- «الصبر طيب .. وفى السجن يجب أن تكتب مشاعرك وإلا بقيت فيه إلى الأبد .. والحيطان لها أذان ..».



خلال الأسابيع التالية استطاع عادل أن يتأقلم مع جو المعتقل، وخفت حدة غضبه ومشاعره الصاخبة، لم يكن أمامه سوى أن يرضى بما هو مقسوم، ويصبر على البلاء، فالآلاف من حوله يمارسون حياتهم فى انتظار الفرج .. الذى سوف يأتى .. ربما اليوم .. ربما غداً .. وربما فى عيد الفطر، أو عيد الأضحى، أو عيد الثورة، أو عيد النصر .. الأمل يتجدد دائماً، ولا مفر من ذلك .. ولا بد أن يداوم

على كتابة برقيات التأييد للرئيس وللشورة، وعرائض الشجب للرجعية وأعداء الشعب، حتى يؤكد ولاءه وانتماءه للحزب، برغم الكدمات التي ما زالت في وجهه وجسده.. فهو - كما يزعم أمام المسؤولين في المعتقل - يلتمس العذر للحكومة ولرجال الأمن في الإجراءات العنيفة التي تُتخذ لحماية مستقبل الأمة وسلامتها، ويؤكد ذلك في كل مرة، مع إيمانه الكامل بأنه يكذب ويدارى حتى يخرج من هذا الجب اللعين..



على الرغم من هدوء الأحوال في المعتقل إلا أن عادلاً أخذ يتبرم بهذه الإقامة التي تبدو بلا نهاية معروفة، إنه يعتقد أن الوقت هو الحياة، لكن الدقائق والساعات والأيام تمر ثقيلة متلكئة بلا معنى، فالكتب لا يُسمح بها، والصحف والمجلات الحكومية وغير الحكومية ممنوعة، وحياسة الأوراق والأقلام جريمة لا تغتفر، والأهم من ذلك أن امتحان الدكتوراة قد اقترب مواعده، تتم بينه وبين نفسه قائلاً: «لا بد أن أخرج قبل الامتحان، وإلا سبقني رفاقي في الدور» حينما أبان عن أفكاره لزملائه سخرؤا منه؟ لأن موعد الخروج من هذا المكان مجهول، شأنه شأن كل شيء في البلد، وبالطبع فإن المسئولين لا يفكرون في قضايا تافهة كهذه تخص بعض الأفراد، ومع ذلك فإن هذا

الموضوع أصبح شغله الشاغل ، لعله أصبح أهم من قضية الشرق الأوسط ، والاشتراكية ، والأزمة الاقتصادية ، وأمن الدولة ، وعلم عادل مصادفة أن لائحة السجون والمعتقلات تنص على أن للسجين الحق فى حضور الامتحان ، وتساءل عن السبب فى عدم الاستفادة من هذه اللائحة ، وخاصة أن نسبة كبيرة من الطلاب يعيشون فى المعتقل ، لكنه لم يجد جواباً على سؤاله سوى الابتسامات الساخرة ، والنظرات العاتبة .

أصبح نومه أرقاً ، وذكرياته دموعاً ، وآماله سراباً ، وأمجاده السابقة عبثاً ، وهذا الجو العاصف الخائق لا تنبت فيه زهرة ، ولا يشرق فيه فجر ندى ، القتامة والبؤس والسواد هى كل ما يقتاته من طعام روحى ، حتى أوشك على الكفر بكل قيمة . . لكنه حينما سمع اسمه يدوى فى «ميكروفون» المعتقل هب واقفاً ، وأخذ يتلفت فى دهشة ، وتغتم «ما الحكاية؟؟» جاءه صوت أحد الرفاق قائلاً :

- «واحد من اثنين ، إما الإفراج أو التحقيق . .» .



دق قلبه ، هل يمكن أن يفرجوا عنه بهذه البساطة؟؟ ولم لا؟؟ لم تثبت إدانته فى ارتكاب جريمة ، ومن حقه إذن أن يخرج إلى عالم الحرية ، ويستأنف حياته ، ويلحق بركب الامتحان . . إن التحقيق من جديد أمر مستبعد ، ولم يكن هناك أدنى شك فى براءته . . دق الباب بقبضة متشنجة دقات تكاد تكون هستيرية ليعلن للسجان عن مكان وجوده ، وسمع إيلاج المفتاح الحديدى الضخم فى ثقب الباب . .

- «أنت المعتقل عادل فتوح؟؟» .

- «نعم أنا هو . . خير ، ماذا تريدون منى . . ؟» .

جذبه العسكرى من ذراعه قائلاً:

- «تعال . . وما أدرانى؟؟» .

كان مكتب المأمور أنيقاً ، تَرَفُّ فيه مروحة كهربائية ، ويغمره ضوء مبهر برغم شمس النهار ، ورائحة القهوة فى الفناجين تداعب خياشيمه فى القسوة . . منذ مدة لم يذق

القهوة التي يعشقها . . على الرغم من أنها تركية . .  
والسجائر الممنوعة في العنابر تملأ سحبها المكان . . لشد ما  
يتشوق إلى واحدة . . لم يهتم أحد بحضوره ، فالمأمور ظل  
يتحدث مع ضباطه ، تاركين عادلاً واقفاً دون اكتراث ، قال  
العسكري وهو يؤدي التحية :

- «تمام يا أفندم» .

قال المأمور باستهتار :

- «ما اسمك؟؟» .

- «الدكتور عادل فتوح . . معيد بكلية الطب . .» .

ابتسم المأمور في سخرية وهو يقيسه بنظراته :

- «لا فرق هنا بين دكتور وتومرجى . . المهم تعال وقّع

هنا بإمضائك . .» .

قال عادل في ذل :

- «خير يا بك؟؟» .

- «وهل وراء أمثالكم أى خير؟؟» .

صدم عادل ، لكنه كظم أساه ، وتمتم :  
- «تحت أمرك يا أفندم . . .» .

أفهمه المأمور أن سبب استدعائه هو التوقيع على توكيل خاص بصرف مرتبه عن الشهور الثلاثة الماضية ، وسأله عن من يريد أن يوكله في هذا الأمر ، ولم يستطع عادل أن يجب بالسرعة المتوقعة . . إنه يفكر في أصدقائه . . لا . . ليس فيهم من يحبه . . أن يثق فيه . . فكر في أسرته في القرية . . ثم فكر في بعض زملائه في المنظمة أو الحزب . . يا إلهي ليس فيهم من يصلح ، وفجأة وثبت إلى ذهنه صورتها . . إنها فضيلة . . ولا أحد غيرها . . وشعر بالارتياح التام لذلك ، وسرعان ما سجل اسمها ، ووقع على التوكيل . . سيكون هذا التوكيل رسالة صامته إليها تحمل أقوى المعاني وأعمقها . . إنها إنسانة ممتازة بحق ، لم يعرف قيمتها إلا في هذه الأوقات العصيبة . . أكان يمكن أن يوكل نادبة عبد الباقي التي قبض عليه في بيتها؟؟ مستحيل . . إنه يكرهها كما يكره هذه الأيام الطافحة بالسواد والعذاب . . وعاد إلى غرفته شاحبًا حزينًا . . كان الرفاق في انتظاره على أحر من

الجمر ، بعد أن جلسوا دقائق يضربون أخماساً في أسداس ،  
ظناً منهم أن التحقيق الرهيب قد يفتح من جديد ، إن أسوأ  
الاحتمالات هي الأقرب إلى تصوراتهم في هذا العالم  
القبيح الرديء على حد تعبير الناقد الأدبي المعروف  
المحبوس معهم ، لكنهم تنفسوا الصعداء عندما علموا  
بموضوع التوكيل . .

جاء رشدي القصاص باسمًا كعاداته ، وقال لعادل  
مصافحاً :

- «مبروك التوكيل . .» .

هز عادل كتفيه في تبرم قائلاً :

- «بارك الله فيك . . وما قيمة التوكيل؟؟» .

- «إنه يعنى أن الإدانة بعيدة عنك . .» .

رفع عادل رأسه في اهتمام ، وقال :

- «وأنت؟؟» .

- «أنا أكتب التوكيل منذ دخلت هنا . .» .

- «باسم من؟؟» .

- «لا أحد لى فى القاهرة سواه . .» .

- «من تقصد؟؟» .

- «الشيخ علام العيسوى أطال الله عمره . .» .

شعر عادل بالانقباض ، لكنه حاول إخفاء مشاعره ،  
ومال بالحديث إلى جوانب أخرى ، أهمها الإفراج ، ومتى  
يكون؟؟ وأبدى عادل ضيقه بالأيام الرتيبة الرخيصة التى  
تمضى هنا بلا معنى ، وبالشعور المؤلّم بأن روحه المعنوية  
تتضاءل يوماً بعد يوم ، قال رشدى القصاص :

- «نحن الذين نعطى الزمن قيمته بتصرفاتنا

وأفكارنا . .» .

- «هل نحن سوى حيوانات تأكل وتشرب وتنام؟؟» .

قال رشدى بثقة :

- «لم لا يكون سجنك خلوة ، وصمتك فكراً ، وكلامك

ذكراً ، وبلاؤك صبراً؟؟» .

- تتكلم مثل الشيخ علام العيسوى .

- «كان نبي الله إبراهيم فى صندوق خشبى صغير ،  
والسنة الجحيم المشتعل تطبق عليه من كل جانب . . قال له  
جبريل : ما حاجتك يا إبراهيم . . قال : أما منك فلا ، وأما  
منه فعلمه بحالى يغنى عن سؤالى . . ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا  
وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] ، ونجاء الله من  
الكرب العظيم . . أتؤمن بذلك؟؟» .

صرخ عادل ودمعة تتأرجح بين أهدايه :

- «لا أستطيع . . ولست نبيًا لأنتظر معجزة . .» .

قال رشدى وهو يربت على كتفه :

- «لكن رحمة الله باقية . . ألم يقل : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ  
الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ١٢]؟» . .

جفف عادل دمعته ، وقال :

- «أنتم لستم بشرًا . . من أنتم؟؟ كيف تحملون هذا  
العناء؟؟ إننى أفكر فى الانتحار كل يوم . .» .

وأدرك رشدى أن عادلاً فى حالة هياج نفسى شديد،  
وكان لا بد أن يفتح أمامه باب الأمل حتى تهدأ خواطره،  
ويتعش الأمل فى قلبه، قال:

- «أخبرنى طبيب السجن أن الحكومة ستفرج عن  
مجموعة فى عيد الثورة القادم..».

بدا الاهتمام على وجه عادل، وقال:

- «سيكون الامتحان قد فات..».

- «من يدري قد يعجلون بالأمر، على الأقل بالنسبة لمن  
ثبت عدم تورطهم فى عمل ممنوع..».

قال عادل وسمة الجذ تبدو على حديثه الواثق:

- «بالتأكيد.. نعم بالتأكيد.. إن المسئولين يعرفون من  
أنا، وزملائي فى الحزب والتنظيم لن ينسوا فضلى.. هناك  
من سيتوسط من أجلى.. إننى مؤمن بذلك تماماً..».

وذهل الرفاق حينما رأوا عادلاً فى أحد أيام الجمع  
يمسك بمصحف ويقرأ فيه سورة «الكهف» أخذوا ينظرون  
إليه فى دهشة بالغة، قال أحدهم:

- «لقد التقط رفيقنا ميكروب العدوى من الإخوان» .

ورد آخر فى سخرية :

- «لم تكن لديه المناعة الكافية . . نسى أن يأخذ حقنة التطعيم . . » .

قال ثالث :

- «الخوف واليأس يدفعان الإنسان للسباحة فى بحر الغيبيات والتفكير فى الجنة . . » .

سمعهم وهم يتهايمسون ، كان حاد السمع دائماً ، توقف عن القراءة ، وقال دون أن يرفع رأسه عن المصحف :

- «الرئيس زار بيت الله ، ويصلنى فى الأزهر والحسين ، ويضمن خطبه الآيات القرآنية . . هل نسيتم؟؟» .

ولمّا لم يجب أحد على ملاحظته استطرد :

- «والميثاق يسجل فى صفحاته الإيمان بالقيم الروحية . . » .

قال الناقد الأدبى المعروف :

---



- «ليس هذا دليلاً . . والسياسة تقضى بعض  
«الديكورات» الضرورية . . إن هناك بعثة حج رسمية تخرج  
من الاتحاد السوفيتى كل عام . . » .

أغلق المصحف ، ووضعه إلى جواره فى هدوء ، وقال :  
- «ماذا تقصدون؟؟» .

سددوا إليه نظرات خبيثة ، ولم ينطق أحد ، فصرخ :  
- «تكلّموا يا أوباش . . » .

هتف أحدهم والحقد يقطر من كلماته :  
- «لعلك تريد أن تكتب «تقريراً سرّياً» جديداً؟؟» .  
هب وقفاً ، وقال :

- «تتهوننى بالخيانة والجاسوسية إذن؟؟» .  
- «ليس هذا جديداً عليك . . » .

دارت به الأرض ، تدفقت فى قلبه ينباع الحقد القديم ،  
والغضب المكتوم ، وانقذف صوبهم فى جنون ، وأخذ يكيل  
اللكمات والركلات لمن يصادفه ، تعالى الضجيج

والصراخ، كان الوقت قبل الظهر، وأبواب الغرف مفتوحة، وهروا السجانة، وأخذ أحدهم ينفخ فى صفارته، ويصرخ:

- «تمام.. كل السجن تمام.. كل معتقل يدخل غرفته...».

وفى دقائق كانت الأبواب قد أغلقت، وحضر مأمور السجن والضباط ومزيد من المعسكر..

قال أحد الإخوان:

- «ماذا جرى؟؟».

رد رشدى القصاص، وكان آخر الداخلين إلى الغرفة بعد مجيئة من المستشفى:

- «أصحابنا الشيوعيون يضرب بعضهم بعضاً...».

ووثب أحد الإخوان نحو النافذة العالية، وتشبث بقضبانها ليراقب ما يجرى فى الخارج، واستطاع أن يرى من بعيد طابور الشيوعيين يسير خارج العنبر، والمعسكر

---

يتسابقون إلى ضربهم على أقفيتهم ، وهتف وهو ما زال  
متشبهاً بالقضبان :

- «لقد ساقوهم إلى زنازين التأديب» .

وبعد لحظة قال :

- «صديقك عادل فيهم يا دكتور رشدى .. يا إلهى !!  
لقد ركلوه وسقط على الأرض .. سقط معتقل آخر ..  
العسكر يدوسونهم بالأحذية الثقيلة .. » .

وعلق أخ عجوز قد تخطى السبعين متمثلاً بكلمات من  
كتاب الله قائلاً :

- « .. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾  
[الأنعام : ٦٥] صدق الله العظيم» ..



بقى عادل ورفاقه فى زنازين التأديب الانفرادى خارج  
العنبر أسبوعين ، ولم يكن يسمح لأحد بالاقتراب منهم إلا  
سجان التأديب ، أو الطبيب ، أو من ينوب عنه ، وقد أجرى

معهم تحقيق دقيق حضره أحد ضباط المباحث فى الداخلية ،  
وبدا واضحاً أن ذلك الضابط - الذى سبق وحقق معهم من  
قبل عند دخولهم المعتقل - لم يكن متضايقاً لما جرى من  
خلاف وتصادم ، بل على النقيض من ذلك كان سعيداً ؛ لأن  
مثل هذه الخلافات تكشف لرجال الأمن مزيداً من الخفايا  
والأسرار ، فضلاً عن أن الأحقاد الشخصية قد تدفع البعض  
لإزاحة الستار عن أمور كامنة لها دلالاتها ، وأخيراً قال  
ضابط المباحث :

- «لسنا شيوعيين .. ولسنا إخواناً .. ولكننا ثورة ..» .

رد عادل على الفور :

- «أنا ابن الثورة .. هذا ما يعرفه الجميع ..» .

واستمر الضابط فى حديثه :

- «الروس أصدقاؤنا ، لكننا لسنا شيوعيين .. والإخوان  
أعداؤنا لكننا لسنا ملحدين .. هذه البديهيّات يجب أن  
تعوها جيداً ، وإلا قطعنا رقابكم جميعاً .. والمعتقل ليس  
نادياً سياسياً ، ولا مجال للصراعات فيه .. أتفهمون؟؟» .

ردوا جميعاً بصوت واحد:

- «نفهم يا أفندم ..» .

- «المعتقل مجرد رقم .. كلكم سواء .. لا ثقة في أحد

منكم .. ومن يرفع رأسه نحطمها .. مفهوم؟؟» .

ردوا جميعاً:

- «مفهوم يا أفندم ..» .

- «يمكننا أن نحيل الكراييج إلى مشانق في أية لحظة ..

إن البلد مشغولة بكبريات الأمور، وأنتم تعبثون

كالأطفال .. ويا ويل من ينسى قواعد الأدب ..

مفهوم ..» .

قالوا بصوت واحد قوى واضح:

- «مفهوم يا أفندم ..» .

لم ينس رشدى القصاص صديقه القديم أثناء محنته في

التأديب، فقد كان يهرب إليه بعض الأطعمة الإضافية

بموافقة طبيب السجن، وكان يوصى به سجان التأديب

خيرًا، ولهذا كان نصيبه من الضرب أقل بكثير من نصيب زملائه، وكان عادل سعيدًا بهذه المؤازرة وتذكر في مرارة.. . التقارير السرية التي كتبها رشدى، والتي كانت سببًا فى حبسه، فشعر بسياط الندم تلهب ضميره، كانت أشد إيلامًا من سياط العسكر، لكن ما فات فات، وقد أراد الله أن يشرب من الكأس نفسها المريرة التى شرب منها رشدى الضحية البرئية، ومن عجب الأقدار أن يكون رشدى هو الذى يداوى جراحه، ويحنو عليه.. . وقبل أن يغادر عادل سجنه الانفرادى يومين جاءه رشدى بعد العصر قائلاً:

- «أحضرت لك الأقراص المنومة التى تريدها.. . لكن تذكر أن بعض المسجونين يستخدمونها فى الانتحار.. . ولوائح السجون شديدة.. . لكنى أوصيت الطبيب أن يملك بها عند الضرورة.. .».

قال عادل فى دهشة:

- «ولماذا لا تحضرها أنت؟؟».

خفض رشدى رأسه، وقال فى حرج:

- «سيفرجون عنى صباح الغد . . .» .
- لم يصدق عادل أذنيه ، فتح عينيه على آخرهما قائلاً :
- «لم أسمع جيداً ، ماذا تقول؟؟» .
- «لقد صدر أمر الإفراج عن مائة معتقل . . .» .
- هتف فى دعر :
- «وأنا؟؟ لماذا لا يفرجون عنى؟؟ تكلم . . .» .
- «بالطبع ستخرج إن شاء الله فى دفعة قادمة . . .» .
- انفجر عادل باكياً :
- «إنى فى مسيس الحاجة للخروج . . أكاد أجن . . لماذا يتركوننى . . لماذا؟؟ لماذا؟؟» .
- وأخذ يدق رأسه فى الحائط كطفل متمرّد ، أمسك به  
رشدى واحتضنه فى رفق ، وقال :
- «لا يصح أن تفعل ذلك . . كن رجلاً . . .» .
- «أنا مظلوم . . مظلوم . . .» .
- قال رشدى وهو يجفف له دموعه :

- «لن يجدى غير الصبر ، والأيام تمر .. كل شيء عنده بمقدار .. غداً تخرج بإذن الله .. وسيصبح كل ما أنت فيه اليوم مجرد ذكريات .. وستستفيد كثيراً ..» .

هتف محنقاً :

- «أى فائدة والامتحان على الأبواب ...» .

قال له رشدى وقد نقر السجان على الباب ليخرج :

- «سأمر عليك فى الصباح قبل رحيلى .. وأنا على استعداد لتنفيذ ما تكلفنى به فى الخارج ..» .

أفاق عادل من ذهوله ..

وجد نفسه وحيداً ضائعاً فى الزنزانة الكثيبة ..

انفجرت دموعه من جديد ..

تلفت حواليه .. وجد الأقراص الثلاثة .. ابتلعها دفعة واحدة ..







كانت المشاهد تتوالى من خلال الزجاج ، وسائق  
التاكسى يتمايل طرباً مع أعنية عاطفية فى المسجل ، البنايات  
والسيارات وخلق الله يملأهم أمام بصره كشريط سينمائى ،  
لكن صورة القابعين هناك خلف الأسوار فى الزنازين لا  
تفارق خياله ، إنها تمتزج بكل ما يراه فى الشارع ، آخر ما مر  
برشدى فى المعتقل كانت صلاة الفجر ، كان الإمام يقرأ  
سورة النجم . . ﴿ وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۝ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ  
وَمَا غَوَىٰ ۝ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ  
يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ١-٣] .

ترى ما هى العلاقة بين النجم ، وبين ما يأتى به المصطفى  
من وحى؟ النجم يتألق بعيداً فى الأفق . . يتألق فى الليل

كالأمل . . وكيف الوصول إليه؟؟ إنه صعود روحي لا شك . . والصعود يحتاج إلى قوة خارقة لا تسعفها ماديّات الطاقة المعروفة، ولا التكنولوجيا المستحدثة . . بعد الصلاة خرج إلى فناء السجن الكبير حيث احتشد باقى إخوانه، وظلّوا جالسين على الأرض حتى أشرقت الشمس، وغمر الضوء المكان، وأخذ كل فرد يتسلم «أماناته» ويوقع على العديد من الأوراق، وفي العاشرة حضر «المستول الكبير» من المباحث، وحوله كوكبة من العسكر يتقدمهم مأمور المعتقل وضباطه، وكان لا بد من خطبه يلقيها المستول ولكنه متكبر مستعلية قال: « . . لقد عفونا عنكم كتجربة . . إن من يلعب بذيله لن يرى الحياة مرة أخرى، إن عدم ثبوت أى تهمة عليكم ليس معناه أنكم أبرياء . . أعرف أنكم ملاعين، وما كان يجب أن تخرجوا لولا الرئيس صاحب القلب الكبير . . وعمومًا، فأنتم لا تستطيعون الإفلات . . دائماً تكونون تحت سمعنا وبصرنا . . ونحن قادرون على معرفة ما يجرى بين الزوج وزوجة عندما نشاء . . الشخص الصادق فى توبته منكم هو من يتعاون معنا . . لا بد من

الإبلاغ عن أى قول أو فعل يشتم منه كراهية الحكومة أو نقدها، لا أريدكم أن تكونوا سلبيين، وتعتزلوا الحياة.. لا بد أن تصبحوا جنوداً أوفياء للثورة على الرغم من أنكم معزولون سياسياً، أثبتوا توبتكم بالتعاون معنا، وليس فى ذلك ما يشين؛ لأن حماية الثورة فرض على الجميع، ومن لا يؤمن بذلك فهو خائن.. ربما أهين أو ضرب بعضكم، وليس هذا مدعاة لغضبكم، إن عملية «الفرز» التى نجريها عليكم تلجئنا إلى ذلك.. وستكون الإدارة على استعداد لحل ما يعرضكم من مشاكل.. والمخلصون منكم ستكون لهم مكافآت سخية من كل لون.. والمتلاعبون نستطيع أن نجرحهم إلى المعتقل فى أى وقت.. مفهوم؟؟ وكالعادة صاحوا بصوت قوى مسموع: «مفهوم يا أفندم».

وحينا فتح رشدى باب شقته الصغيرة وجد كل شىء على حاله، الأثاث المبعثر عقب التفتيش منذ الشهور، الأطباق المتسخة فى المطبخ، والتى لم يمهله كى يغسلها، وكتب الباثولوجيا الضخمة تترامى، وكأنه لا يعنيه شىء، وصحيفة قديمة تصدرها صورة الرئيس وقد علاها الغبار، وفأر ضخم يفلت من بين قدميه مذعوراً، وبضعة صراصير

فوق الوسادة والمنشفة، وجلباب النوم معلق على مسمار فى الحائط . . الزمن توقف هنا، وكل شىء - فعلاً - على حاله . .

لم يتوقف طويلاً، إذ سرعان ما بدأ حملة التنظيف والتطهير، بعد أن فتح النوافذ لتتدفق الشمس، وظل يعمل بجد حتى أذان المغرب، فاغتسل بسرعة وبديل ملابسه، ثم استعد للنزول إلى الشارع . .

حينما دخل المسجد الإمام الحسين شعر ببرد اليقين والسلام، وجد جماعة قائمة فالتحق بها . . وما إن أتم الصلاة وختمها حتى صلى النفل، ثم قصد المقصورة . . هناك وجده جالساً يتلو آيات القرآن الكريم . . جثا رشدى على ركبتيه قبالة وألقى السلام، ورفع الشيخ العجوز رأسه، ودقق النظر وهو لا يكاد يصدق:

- «رشدى» .

واحتضنه الشيخ علام العيسوى فى شوق قائلاً:

- «لقد عاد إلى رشدى» .

---

امتزجت الدموع ، وكان ذلك أغنى من أى تعبير . . قال  
الشيخ العيسوى ، وهو يحاول الابتسام :

- «هذا عناق الأجيال» .

وأمسك بيد رشدى وضغط عليها فى حب قائلاً :

- «هيه . . هل وجدت الجواب؟؟» .

- «وجدت يا شيخى إجابات كثيرة لتساؤلات كثيرة . .

كانت تبرق بين ألسنة النيران ، وبين خيوط الدم المنسكب ،  
وفى سواد الليل العقيم . .» .

أردف الشيخ قائلاً :

- «وفى ابتسامة الفجر الوليد . .» .

تتم رشدى :

- «الزبانية لا يتسمون فى الحقيقة ، بل يفقهون

كالشياطين . .» .

قال الشيخ :

- «الفجر فى قلبك . .» .

---

- «أجل . . أعرف . .» .
- «وقلوب العاشقين لها عيون . .» .
- «حاولوا طمس كل شيء يا شيخى . .» .
- «لن يقتلوا العشق . .» .
- هز رشدى رأسه قائلاً:
- «إنه حياة الروح . .» .
- «كنت معك . .» .
- نظر رشدى إليه طويلاً ثم قال:
- «وكنت معك أيضاً . .» .
- «أشعة الروح تخترق السدود . . إنها أقوى من أشعة  
إكس التى تتحدثون عنها مليون مرة . .» .
- تألفت درر الدموع فى عيني رشدى الواسعتين، وقال:
- «يا له من كرب عظيم . .» .
- «كان بمثابة تطهير وتنقية . .» .

ومسح الشيخ العيسوى على ظهره فى رقة، وقال:

- «قد عرفت الطريق.. فانطلق..».

لم تصدق فضيلة النبأ بعد أن أكد لها أبوها أنه رأى  
رشدى شخصياً فى مسجد الإمام الحسين، كانت تتصور أنه  
لن يخرج أبداً من المعتقل - على الأقل فى هذه الأيام  
المدلهمة المضطربة - ولم تظن أن يكون خروجه قبل عادل،  
وذهب الشحوب عن وجهها، وتألفت الحيوية فى عينيها،  
وتورّد خذاها.. قالت لأبيها:

- «إنهم ما زالوا يعتقلون الناس، فكيف يفرجون عن

بعضهم..».

قال فى هدوئه المعهود:

- «لعبة القط والفأر.. أو قصة الذئب والحمل.. أو

الثعبان والحمامة.. هل تدرين حكايات كليلة ودمنة؟؟».

- «لقد نسيتها يا أبى من زمن بعيد..».

- «لكنها رموز لما تحدث كل يوم فى حياتنا..».

ابتسمت فضيلة ، وقالت :

- «ولهذا قطعوا رقة ابن المقفع الذى كتبها . .» .

- «لكنها عاشت بعد موته . . وترجمت للغات الدينا يا

ابتى . .» .

- «والأطفال لا يعرفون أن كاتبها دفع حياته ثمناً

لها . .» .

- «المهم أنهم يستمتعون ويسعدون بها . .» .

كان من الصعب على فضيلة أن تنام ليلتها ، الأحداث القديمة تنثال بلا رحمة وتذكرها بما مضى ، وتحاول أن تهرب حتى تنام ، ولكن بلا جدوى ، كان رشدى وعادل يقفان قبالتها فى ظلام الغرفة الدامس ، وهى قاض يجلس على أريكة ذهبية . . لقد ألقت بنفسها فى ظلام الحيرة المعذبة ، لم تجر بنظراتها إلا فى اتجاه واحد . . العالم من حولها شاسع ، والناس بالملايين ، والطرق عديدة . . لكنها حصرت نفسها فى موقع بعينها تأدباً وحشمة ، أو هكذا خيل إليها . . ظنت أنها حسمت الأمور من قديم ، لكنه كان وهماً ذلك الظن . .

---



ووضعت للحب مواصفات خاصة من صنع شاعرها، لكن تلك الصفات تبددت. . وذابت في حرارة شمس الحقيقة. . فهمت الإخلاص معنى محددًا، واعتبرت الوفاء قيدًا حديدياً لا فكاك منه، حتى ولو كان الوفاء لمن ليس محلاً لذلك. . افتخرت بالحرية على الرغم من أنها صنعت لنفسها أغلالاً من ذهب زائف. .

قال أخوها سعد على خروج رشدى وبقاء عادل في المعتقل:

- «الحكومة لا تخرج من مازق إلا لتقع في مازق جديد، وهى تعاني من ضعف وحيرة شديدة، لكنها تتصنع القوة. . إنه وهم القوة. . لهذا فهم يعتقلون ويفرجون. . أليس هذا في حد ذاته دليل الانهيار؟؟».

أما طبيب النساء والولادة زوج شقيقتها الصيدلانية سميرة، فقد رد وهو يثائب:

- «عدد الولادات في ازدياد برغم أقرص منع الحمل، وحملات التوعية، ونسبة الأطفال الذين يولدون مشوهين

---

فى تزايد أيضاً. . وأنا أجرى حالياً دراسة دقيقة عن سبب ذلك. . ترى هل هناك علاقة بين سوء الأحوال العامة وما يحدث فى غرفة التوليد؟؟».

ضحك المقدم زوج رنده، وقال :

- «يا سميرة خذى زوجك إلى السرير قبل أن ينبعث غطيظه. .».

رد الدكتور :

- «صدقت، فأنال لم أتم طوال الأربع والعشرين ساعة الماضية سوى ساعتين. . إننى فى حاجة ماسة إلى شهرين أو ثلاثة فى المعتقل حتى أستريح. . وأنام. . النوم لذيذ جداً. .».

وضج الجميع بالضحك، وقال المقدم :

- «لو حدث ذلك لطرّدونى من الخدمة».

- «لماذا؟؟؟».

- «لأنك متزوج من شقيقة زوجتى. .».

قال الدكتور وهو يغالب النوم:

- «هذه حالة «تشوه سياسى» لا تقل جسامة عن تشوه الأطفال المولودين حديثاً..».

وأخذت سميرة بيد زوجها، ودخلا غرفة النوم..

وعلقت الدكتور فضيلة قائلة:

- «إن أفضل شيء يفعلهُ الإنسان فى هذه الأيام هو أن يتزوج..».

هتف المقدم قائلاً:

- «هكذا دون خجل..».

- «إنه تصرف منطقى..».

- «إذن فلنزفك إليه فى المعتقل..».

امتقع وجهها، وقالت:

- «أنا لم أبت فى هذا الموضوع بعد».

مال عليها مداعباً:

- «ومتى تبتين؟؟».

- «لست فى عجلة من أمرى؟؟».

- «أتناقضين نفسك يا فضيلة؟؟ ثم هل من اللائق أن تتخلى عن الدكتور عادل وهو فى محنته؟؟».

أغضبها قوله الأخير، وكادت تنفجر ولكنها تمالكت أعصابها:

- «ليس الأمر على هذا النحو، لو كنت مقتنعة به الآن لانتظرتة إلى الأبد. . التضحية لا بد أن تكون على أساس سليم. .».

عاد المقدم يقول مخاطباً الجالسين:

- «أختكم تتمرد. . إنها ثورة ضد الثورة. . استحلفك بالله من هو «الحليف» الجديد. . المرأة لا تتخلى عن رجل إلا إذا وجدت البديل. .».

وجاءت كلمات فضيلة الهادئة كالدوى الهائل:

- «رشدى القصاص. .».

---

وقدم أبوها من غرفته القرية، وقطع الصمت والذهول  
قائلاً:

- «هذا ما توقعته.. نعم مَنْ اخترت يا فضيلة..».

ضرب المقدم كفاً بكف، وقال:

- «إنه انقلاب أبيض..».

وقالت سميرة:

- «سبحان مغير الأحوال».

أما الصحفي سعد، فقد قال:

- «إن الإنسان عبارة عن مجموعة من الحالات النفسية

المتغيرة والتغير لا يأتي من فراغ، ثم إنه ليس عشوائياً..

إننى أفهم جيداً الدوافع التى حملت فضيلة على ذلك..

ولهذا فأنا أبصم بالعشرة..».

تهلل وجه فضيلة فرحاً:

- «فعلاً.. إنه لدى من الدوافع والأسباب التى جعلتنى

أتخذ هذا القرار . . وليس فى ذلك خداع أو خيانة . . إنه أولاً وأخيراً صدق مع النفس . . » .

أشعل المقدم سيجارة ، وأردف :

- « لا يهم . . إننا نجد دائماً المبررات لتصرفاتنا . . ولكل إنسان مطلق الحرية فى اتخاذ القرار الذى يريد ، وخاصة فى أمور شخصية كهذه . . » .

قال الشيخ علام العيسوى وهو لا يستطيع كتمان ارتياحه :

- « لقد تمت الموافقة بالإجماع . . ولهذا فإن القرار يكتسب الشرعية الحقيقية فى مجلس الأسرة الموقر . . » .  
وقالت فضيلة ضاحكة :

- « إن موافقة رئيس المجلس يعطى للقرار ثقلاً مميزاً . . » .



نفضت فضيلة عن كاهلها أعباء قديمة طالما أرهقتها ،  
وشعرت بطعم الراحة الحقيقية ، ومن ثم استطاعت أن  
تستغرق فى النوم بسرعة عجيبة . .

سمعت الدكتور فضيلة ضجة غير عادية وهي جالسة في مكتبها بقسم الباثولوجيا في الصباح أصوات وضحكات . . وزغرودة، خرجت لترى ما يجرى بدافع الفضول البحث، وجدت جمهرة من الأطباء والفنيين والفراشين، رجالاً ونساءً، واستطاعت أن تتبين في الوسط الدكتور رشدى، دق قلبها كما لم يدق من قبل، كان يتسم ابتسامته الصافية الرائقة، عيناه كأنها ازدادت اتساعاً وعمقاً ونقاءً، وبدا وجهه هو الآخر أكثر بياضاً وطهرًا، غرق رشدى في عالم من الأذرع والقبلات والعناق . . «ذلك هو الحب الحقيقى . . حب الناس»، وقدم نحو فضيلة في حياء واحتشام رجل . . إنه أكثر نحافة ووسامة من ذى قبل، وجاءها صوته نديًا رقرقًا:

- «السلام عليكم . . .» .

هزت رأسها مرحبة ، كان واضحاً أنها سعيدة بصورة كبيرة شاملة ، قالت عيناها الباسمتان ما عجز لسانها عن النطق به ، لجأت إلى يديها تشبكهما وتعبث بأصابعها هروباً من حرج الموقف ، وكأنها مراهرة في سن السادسة عشرة ، وقفت وسط الزحام والضجيج والفرح يغمرها من قمة الرأس إلى القدم ، تلك مشاعر عجيبة بهجة تحس بها - على هذه الصورة - لأول مرة في حياتها ، تمت هي الأخرى أن تطلق زغرودة ، لكن ما حاجتها إلى ذلك وفي قلبها مهرجان من الأفراح القدسية الرائعة . .

همست :

- «كان لغيبتك أثر كبير . . لقد تركت فراغاً لم يملئه أحد . . .» .

خفض رأسه ، وتمتم :

- «الحمد لله . . لقد عدنا . . وسعادتي بلقائكم تفوق التصور . . .» .



ورئيس القسم برغم تحفظه وجمود ملامحه، كان هو الآخر يرحب به فى حرارة، وتمتم:

- «علمتنى الحياة أن أكون حريصاً، وأن أتفرغ لرسالة العلم.. أعرف أنك كنت مثال الطالب المجتهد.. لكن لا حيلة لنا فيما جرى..».

قال الدكتور رشدى:

- «تلك سنة الحياة، وأنا أمضى فى طريقي وعينى إلى الأمام.. لا جدوى من البكاء على الإطلاق، ولكن يبقى أن نزيل الأطلال، ونقيم مكانها بناءً جديداً..».

غير أن رئيس القسم فاجأه بسؤال:

- «هل ستذهب إلى مقر عملك الجديد بوزارة الصحة؟؟».

- «نعم.. لكن هناك محاولات تبذل للعودة إلى مكانى بقسم الباثولوجيا..».

هز رأسه، وقال فى أبوة حانية:

- «تعلم أنك من أحب الأطباء إلى قلبي لكنى ملتزم بالأوامر الصادرة بخصوصك، وليس فى مقدورى تغييرها.. . إننى أعرف حدودى جيداً.. .».

ولم يتوان رشدى عن تقديم التماس لمدير المباحث العامة ووزارة الداخلية، طالباً إلغاء نقله، وحجته فى ذلك عدم ثبوت أى اتهام ضده، ثم الإفراج عنه، وهو الدليل الحى على براءته، وبعد جهود مضية وافقوا على أن يعود إلى قسم الباثولوجيا، وطمانوه بأن الإجراءات لن تستغرق أكثر من أسبوعين.

كان رشدى يريد أن يعبر عن مشاعره لفضيلة، لكنه لا يعرف كيف، وبالإضافة إلى ذلك، فإنها فى حكم المخطوبة لعادل، والرسول ﷺ له قول صريح فى ذلك: «لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه»، لهذا أثر الصمت، حتى تنجلي تلك العقبات، ولم تكن فضيلة لتجهل مثل تلك البدايات، فهى تتذكر أنها رفضت الزواج منه من البداية لارتباطها المبدئى بعادل، كما تعالِم أنها فى حكم المخطوبة، وإن لم يقدم لها عادل الشبكة، أو حتى يقرأ

---

الفاخرة كما جرى العرف ، والحمد لله إنها لم تعقد القران حتى الآن ، لكنها استطاعت من خلال زوج أختها المقدم أن تخطر عادلاً في المعتقل بعدم رغبتها في استمرار الخطبة لأسباب جوهرية لا يمكن التغافل عنها ، كانت تعلم أن مثل هذا التصرف منها - وفي هذا الوقت بالذات - شديد الوطأة عليه ، أقل ما يقال : إن حبها كان زيفاً ، ووفاءها كان كذباً ، وإنها لم تحم ظهره إبان محنته القاسية . . لكنها كانت على استعداد لأن تفعل أى شئ من أجل عادل إلا الزواج . . واستطاعت فضيلة أن تبرر تصرفاتها لما قيل عن علاقته بنادية عبد الباقي ، وإذلاله لنفسه بطريقة مهينة للخدمة أهواء الدكتور زكى فودة ، وأفكاره الغريبة عن الناس والحياة والمبادئ ، وغرقه في مستنقع الغواية والوشاية وكتابة التقارير السرية الجائرة . . إن صحيفة الاتهام طويلة ، ومن الخطأ الأخلاقي والاجتماعي أن ترتبط برباط الزوجية مع إنسان كهذا . . وهى مصممة على الزواج من رشدى ، ولن يتم ذلك إلا إذا أنهت علاقتها مع عادل ، فكرت فى الانتظار حتى يخرج من المعتقل ، لكن من يعرف موعد خروجه؟؟ كان لا بد أن تفعل برغم الألم الذى تتوقعه له . . حيما قرأ

رسالتها فى المعتقل . . كان جالساً فى مكتب المدير ، ومعهما  
المقدم زوج رنذة علام . . لقد اشتد شحوب وجه عادل ،  
وتقاطر العرق على جبينه . . لكنه تمالك نفسه أمام  
الرجلين ، لقد بقيت لدية ثمالة من كبرياء ، أيبكى مرة أخرى  
كما تبكى النساء؟؟ مستحيل . . لقد فقد الثقة فى كل  
شئ . . فى الحكومة . . والمرأة . . والأصدقاء . . فلماذا  
يحزن؟؟

ووقف فى شجاعة ، وقال بصوت واضح :

- «هذا حقها . . وأنا أحترم رغبتها . . ولقد أحللتها من  
كل ارتباط» .

قام المقدم ، وقال :

- «وما قيمة ذلك؟ ليس له ما يبرره ، إذ ليس بيتنا أى  
ارتباط رسمى . .» .

- «مجرد شكليات . .» .

وكتب عادل ما أرادوه ، ثم قدم الورقة لمأمور المعتقل كى  
يعتمدها ، وانحنى فى أدب قائلاً :

- «أهناك أوامر أخرى؟؟» .

كان يمشى فى فناء السجن بصعوبة ؛ لأن ساقه لا تكادان تحملانه ، بصق على الأرض فى احتقار لكل شىء ، هياً له وهمه أن العالم كله خائن جبان ، وأنه مظلوم مقهور . . لم يتذكر شيئاً من جرائمه وانحرافاتة . . لكأنما سقط عنه التكليف كما يقال ، لم يكن لديه أدنى رغبة فى البقاء مع رفاقه فى حوش السجن للثرثرة أو المشى ، ومن ثم قصد لتوه إلى غرفته . . جلس وحيداً ، وسرعان ما مال فوق البرشد ، وغطى جسده كله بالبطانية ، من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، لم يكن يريد أن يرى أحداً ، أو يراه أحد ، وتحت الغطاء انتابته موجة من الانفعال اليائس الغاضب ، وانهمرت دموعه ، وأخذ جسده ينتفض ، وحينما قدم رفاقه ووجدوه على هذا الوضع ، تجرأ أحدهم وسحب الغطاء . . كانت الدموع تبلل وجهه المحترق الملهب ، صرخ فى جنون :

- «دعونى وشأنى أيها الحمقى . .» .

قال أحدهم :

---

- «أكل هذا من أجل امرأة.. النساء كثيرات.. وأنت رجل موقف..».

نظر إليهم في دهشة قائلاً:

- «هل عرفتم؟؟».

- «نعم.. أخبرنا السجان بكل شيء..».

قال وهو ينشج بصوت عال:

- «لقد فقدت العالم.. وفقدت نفسي..».

جثا أحدهم بالقرب منه ، وأمسك بخناقه قائلاً وهو يهزه:

- «فضيلة علام العيسوى لم تكن تصلح لك وأنت لا تصلح لها.. وقد تعجب حينما تقول لك إن امرأة مثل نادية عبد الباقي أنسب لك..».

دار بينهم بنظراته المحتقنة في حزن ، وقال:

- «أنتم فسقة لا تعرفون النور..».

أخذوا يلهبونه بتقريعاتهم وتأنياتهم اللاذعة، ويسخرون من أوهامه وحبه الرومانسى الفارغ، وهتف أحدهم قائلاً:

- «الزواج علاقة مادية بحتة.. امرأة ورجل.. وغريزة، وجوع وشبع.. وظماً ورى.. أهو غير ذلك؟؟».

قال عادل:

- «إنكم لا تدرون ما بى.. إن ما تتحدثون عنه هو حب الحيوانات.. وأنا جربت هذا وذاك.. قلت لكم اتركوني وشأني، لقد أضعت منى كل شىء..».

قال أحدهم:

- «ستظل هكذا فى جحيم حتى تودع هذه الخزعبلات والخرافات.. والحب بمعناه الرجعى السلبى لا يصلح للتقدميين..».



انقذت أخبار الحرب المفاجئة كبركان نار عاتياً فى ليل ساكن هادئ، وغطت اللهب السماوات الشاسعة،

---

وتزاحمت الطائرات فى الآفاق ، وهلل المذيع وكبّر ،  
وعربدت البيانات العسكرية الصاخبة . . لقد نشبت المعركة  
مع إسرائيل ، وقوات جيشنا تدق أبواب «تل أبيب» . .  
كانت عواصف الحرب والأنباء أقوى من أى شىء . . ونسى  
المعتقلون أحزانهم الخاصة . . وقف الدكتور عادل فتوح  
مبهوراً بأخبار الانتصارات والبيانات الإذاعية وسط زحام  
المعتقلين وضجيجهم ، وهتف بأعلى صوته :

نحيا الثورة..

نحيا مصر..

عاش البطل جمال..

تسقط إسرائيل وأمريكا..

النصر لنا، والموت لأعدائنا..

وحدث هرج ومرج كبيرين ، وأخذت صفارات  
العسكر . . ونادى المأمور بصوت عال :

- «لا مجال للمظاهرات فى المعتقل . . احترموا

---



النظام . . لا دخل لكم بما يجرى خارج الأسوار . . عودوا جميعاً إلى زنازينكم . . هيا . . » .

وعاد الصمت من جديد ، بعد أن تسلل المعتقلون سراعاً إلى غرفهم ، ولم يعد يسمع غير صوت المذيع في ميكروفونات العنابر ، وتتم عادل فتوح :  
- «النصر معنا العفو العام عنا . . » .

ورد أحد الرفاق :

- «روسيا تقف إلى جوارنا . . إن الإفراج بالنسبة لنا أكيد . . أما الإخوان المسلمون ، فلن يفرج عن أحد منهم . . » .

قال عادل متسائلاً :

- «لماذا؟» .

- «لأنهم عملاء . . » .

- «لا تظلمهم . . » .

- «كيف؟؟ إنهم حرب على روسيا والاشتراكية . . » .

---

فى اليوم التالى خرسـت أصوات المذيعين وصممت  
الميكروفونات ، ولم تفتح أبواب الزنازين ، لماذا؟؟  
قال أحد الرفاق المعتقلين :

- «اعذروا إدارة السجن . . نحن فى حالة طوارئ ، ومن  
يدرى فقد يحضرون الأسرى الإسرائيليين إلى هنا . . » .

وسرعان ما تسربت الأنباء المحزنة . . إن بعض المعتقلين  
من الأطباء ، والذين يساعدون طبيب السجن فى المستشفى  
قد أتوا محزونين زائغى النظرات . . إن جيشنا قد تراجع  
للخط الثانى . . وبعض الفارين وصلوا قناة السويس ،  
والإذاعات الأجنبية تؤكد الهزيمة الكاملة . . وإذاعتنا تكتفى  
بنشيد «الله أكبر» والحزن يعم الأنحاء . . إنها أكبر هزيمة  
عرفتها مصر فى تاريخها القديم والحديث . .

قال الشيوعيين المعتقلين :

- «إن سبب هزيمتنا هو الرجعية وعدم السير على المنهج  
الاشتراكى بحذافيره . . » .

وقال أحد الإخوان المسلمين المعتقلين :

---

- «لقد أهدرنا القرآن وشريعته، وأدمنّا الظلم، فتخلت عنا السماء... وهل النصر إلا من عند الله؟؟ ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]... هذه نصوص إلهية لا مجال لتكذيبها...».

أما عادل فتوح، فقد كان له رأى آخر:

- «لقد فشلت الثورة فى تمييز أصدقائها من أعدائها وأنا الدليل الحى على ذلك... هذا هو سبب الهزيمة والخراب...».

وكان لأحد السجناء وجهة نظر تقول:

- «حرب! سلامات يا حرب!! نحن لا نجند ما نأكله...».

ومع ذلك، فلإن شعور القهر والحزن يجثم على النفوس، يستوعب فى ذلك المعتقلون وإدارة المعتقل، فالأفق السياسى ملبد بالغيوم، ولا أحد يعرف كيف تنجلي الغمة، وتنجو من تلك الورطة التاريخية المرعبة، وكان هناك بعض الشامتين، لكن لم يستطيعوا الكشف عن

هويتهم بصراحة ، فالأمر يتعلق بأمر وطن عريق ، وأمة تاريخ ورسالة ..

وسمحت إدارة المعتقل مرة أخرى بفتح الزنازين والخروج إلى الفناء للمسحة والتهوية ، كانت المجموعات تمشي هنا وهناك ، وعلى الوجوه سمات الهوان والألم ..

كان الوقت مساءً حينما سمعوا الرئيس يعلن عن مسئوليته الكاملة عن الهزيمة ، كما يعلن - في الوقت نفسه - تنحيه عن حمل المسئولية ..

كان الخبر مزلزلاً بصورة صارخة ، لم يتمالك الدكتور نفسه ، فهتف في حماسة - كعادته - معلناً ترحيبه بقرار النتيجة ، وأخذ يكيل السباب والتهم دون تحفظ ، وتنحى باللائمة على النظام كله وبعفونته وانحرافه ، وأبدى سخطاً بالغاً على الاتحاد السوفيتي ، وخيائته ، وتواطئه مع الأمريكان ، والعرب ..

وانبرى له أحد الرفاق قائلاً :

- «إن الذي تقوله خيانة ..» .

توترت أعصاب عادل، وهتف:

- «أنا خائن؟؟».

- «بل ومجرم حقير...».

وتشابكت الأيدي، وتبدلت اللكمات، وعلا الضجيج والصراخ، وسرعان ما جاء العسكر... والمأمور... وأخذوا جميع الرفاق إلى مكاتب التحقيق... كان المأمور غير راغب في اتخاذ أية إجراءات رسمية حيال ما حدث، نظراً لظروف الهزيمة، وتوتر الأعصاب، وضيق النفوس، وانشغال أجهزة الأمن بما هو أهم، وخاصة كبريات الأمور التي تتعلق بمصير البلاد في هذه الظروف الحرجة الدقيقة، لكن رفاق عادل الشيوعيين أصرروا على إخطار المباحث العامة، وإجراء تحقيق رسمي كامل في كل ما قاله عادل..

كل شيء يتأمر ضد عادل التائه المنحوس، لقد قامت مظاهرات تطالب بإعادة الرئيس المنتخب... وعاد، وأصبح عادل في مأزق، واهتمت المباحث بما جرى... كاد عادل يجن... إن رفاقه يشهدون ضده، قال في تذلل:

- «سيدى المحقق.. اعذرنى.. كنت فى حالة نفسية سيئة.. أنتم تعرفون كم أحب الرئيس وأحب الثورة مهما حدث.. سامحونى...».

قال المحقق فى برود:

- «قد تغفر لك أى شىء إلا أن تتهم الرئيس فى نزاهته، وتشك فى كفاءته.. وسوف تقدم للمحاكمة...».

وقف عادل مبهورًا، وتتم:

- «محاكمة!! يا للكارثة!!».

نعم كارثة.. لقد كان اسمك فى كشف الذين سيفرج عنهم هذا الشهر.

يريد المحقق أن يجهز عليه بالندم القاتل..

دارت به الأرض، وارتقى مغشيًا عليه، وعندما أفاق وجد نفسه فى الحبس الانفرادى، وفى اليوم التالى أخذوه ليلاً إلى سجن أبو زعبل الجديد لتحقيقات نيابة أمن الدولة.. وبعد أن انتهت إجراءات النيابة عاد إلى زنزانته فى حالة من الاكتئاب الشديد.. غمغم بينه وبين نفسه:

- «قد بلغت مرحلة من السوء أصبحت الحياة معها مستحيلة تماماً . .» .

وثب إلى نافذة عالية وحطم زجاجها، ثم التقط قطعة من الزجاج الحادة، ثم نزل ورفع عينين دامعتين إلى السماء، وقال:

- «لقد ضعت . .» .

ثم انقض في هستيرية على معصمه وقطع الشريان . .  
وارتمى على بلاط الزنزانة البارد ينزف . .

كان السجان المناوب قد سمع حركة تحطيم الزجاج،  
فأخذ يمر على الزنازين ليتفقدوها . . ثم رأى عادلاً ملقياً على  
البلاط وخيط من الدماء يمتد إلى الباب المصنوع من القضبان  
الحديدية الصلبة . . فاستغاث بزملائه . . وفتح الباب . .  
وجروا عادلاً إلى الخارج . . ثم نقلوه فوراً إلى المستشفى . .  
وأمكن إنقاذه في الوقت المناسب . .







تكاد السعادة تطفو وتعلو وتتسع حتى تغمر العالم كله من حوله، لقد كادت تنسيه الليالي السود في أرض اليأس والكآبة والعذاب، وغمغم رشدى بينه وبين نفسه: «كاذب من زعم أن الحياة مرارة كلها، وواهم من تخيل أنها نعيم دائم» لقد عاد إلى الكلية . . فحمد الله، وعقد قرانه على الدكتورة فضيلة فشعر أن أمنية غالية قد تحققت، ودخل الامتحان ونجح، فتهيات له أسباب الرضا والاستقرار، وكان محض مصادفة أن تزف إليه عروسه، والقاهرة سابعة في الظلام بسبب الحرب والغارات الإسرائيلية الضارية، لكن يكفيه أن فضيلة كانت تتألق كالبدر في ليلة التمام، كان متوجسًا خيفة من الأحداث الجسام، مشفقًا على مستقبل

وطنه، ولهذا فكر في تأجيل الزفاف، لكن الشيخ الجليل  
علام العيسوى قال :

- «امضوا على بركة الله . . النيل يتدفق، والأرض تثبت  
الزراع، والأطفال يولدون، والناس يأكلون ويشربون،  
وموكب الحياة لا يتوقف . . فلتكملوا نصف دينكم يا  
أبنائي . . حاربوا وتعلموا . . وتناسلوا . . واعلموا . . كل  
ذلك فى طاعة الله . . ».

كانت «رندة علام» تشارك فى الفرحة شاردة مرتكبة، لقد  
ذهب زوجها المقدم أحمد إلى الميدان، وكانت تتجنى أن  
يكون معهم فى هذا اليوم، لكنه ذهب فجأة دون وداع، لقد  
أخبرها فى التليفون أنه ذاهب، وطلب منها ومن أبيها  
الدعاء بالتوفيق والنصر، وكان طبيب النساء زوج أختها  
سميرة خارج البيت بسبب حالة ولادة متعسرة جداً، فلم  
يتح له المشاركة فى الفرحة، ومما لفت الأنظار قدوم الحكيمة  
نادية عبد الباقي دون دعوة، لكن فضيلة رحبت بها،  
وأغدقت عليها شتى المجاملات . .

وحضر الحفل أيضاً العاملون فى قسم الباثولوجيا، وعلى رأسهم الأستاذ رئيس القسم، كان الجميع منهمكون فى الحديث عن الحرب والسياسة، وكان بعضهم يحمل «راديو ترانسستور» لمتابعة ما يجد من أبناء من الإذاعات الأجنبية، وكانوا بين مبالغ فى التفاؤل ومغرق فى التشاؤم، فالأنباء متضاربة، الإذاعة المصرية تتحدث عن ضربات موفقة لقواتنا، وتكبيد العدو خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات، وخاصة الطائرات، وإذاعة إسرائيل ولندن وصوت أمريكا تؤكدون على انحياز الإعلام العالمى لجانب إسرائيل، ومن ثم يكون التشكك فى كل الأنباء الواردة منه.

أصبحا معاً وحيدين . .

رشدى وفضيلة . .

قال وأغنية الفرح تنساب من عينيه الواسعتين :

- «أمنية طالما حلمت بها . .» .

خففت رأسها فى حياء وتمتت :

- «لقد تحققت أحلى أحلامي . . .».

عاد يقول :

- «أيام المعتقل زادت من اشتعال أشواقى . كنت واثقاً أن  
أمراً ما سيحدث . . طالما كنت أراك فى منامى !! كنت أسابق  
الزمن . . وأتخيل . . وأتخيل . . أشياء كثيرة لا تعد ولا  
تحصى وقد أصبح الحلم حقيقة . . .».

أمسكت بيده وضمتها إلى صدرها فى حب، وقالت :

- «كانت تراودنى الهواجس والكوابيس . . خفت لا  
تعود إلينا . . شعرت أنهم اختطفوا قلبى حينما اختطفوك . .  
ومن خلال إحساسى العميق بالألم تشكل موقفى الجديد . .  
أدركت أنك على حق، وهم يوغلون فى البساطل . .  
والموقف يعنى الإيمان بشيء مهمما كلفنى ذلك من  
تضحيات . . وسواء تزوجنا أم لم نتزوج . . لقد عانيت  
الكثير من التوتر والقلق والحيرة . . يالها من أيام . . النار  
تنفى الشوائب الخبيثة . . الإنسان لا يولد مرة واحدة . . قد  
يولد مرة ومرة . . .».

ابتسم رشدی، وقال:

- «إن أستاذی الشیخ علام ترك بصماته على  
أفكارك...».

قالت وهی سابحة بنظراتها فی عطر العرفه ونورها:

- «فی عالم صفاته تعلمت الجریة...».

ودد فی سعادة:

- «وعلى ضوء كلماته الصادقة عرفت الطريق...».

وفتح ذراعیه...

وفتحت ذراعیها.

لَمْ یَقْضِ مِنْ شَهْرِ الْعِیْلِ عِوَى أیامَ أَرْبَعَةٍ، وَكَانَ  
اسْتَدْعَاؤُهُمَا عَلَى عَجَلٍ، لَقَدْ اكْتَظَ الْقَصْرَ الْعِیْنِ بِالْجُرَیخِ،  
تَحَطَّمَتِ أَجْنَحَةُ الْأَمَالِ الْعَائِضَةِ فِي السَّمَاءِ، وَسَقَطَتْ عَلَى  
أَرْضِ سِیَاءٍ الْوَاسِعَةِ، وَارْعَدَتِ الدُّنَا بِأَخْصَارِ مِثْ سِفَةِ  
مُؤَيَّسَةٍ... وَهَامَ النَّاسُ فِي الطَّرَاقَاتِ كَالْيَتَامَى.

قال سعد علام الصحفي:

---

- «حلفاؤنا الروس لا أمل لهم سوى وقف المعركة . .  
سلاح الطيران انتهى . . وجيشنا تبدد . . ومعداتنا الحربية  
غنمها العدو . .» .

وحينما أعلنت تنحية الرئيس ، قال الشيخ علام العيسوى :  
- «عندما انهزم المسلمون يوم «أحد» . . لم يفروا . . لقد  
جمعوا حشودهم فى اليوم التالى ، وطاردوا جيوش  
مكة . . تصوروا كيف أن المنهزمين يطاردون المتصرين !!» .  
قال ولده سعد :

- «كان ذلك أيام المعجزات . .» .  
- «ليست معجزات يا ولدى . . ولكنها إرادة المؤمن . .» .  
- «المؤمن؟؟ لقد عزلوه . . وطاردوه . . ولم يبق إلا  
الحثالة . .» .

وصمت سعد برهة ، ثم استطرد :  
- «هزمتنا الخطب الرنانة ، والشعارات الجوفاء ،  
والكبرياء الفارغة . . ومات عشرات الآلاف على رمال  
سيناء . . مَنْ المسئول؟؟» .

---

قال أبوه فى هدوء :

- «نحن...» .

وقال طبيب النساء زوج سميرة وهو يتشاءب :

- «كانت ولادة متعسرة... يا إلهى كم تتعذب النساء!!  
لكن الله سلم ، وأخرجت الجنين حياً... ولم يحدث للأم أية  
مضاعفات خطيرة... أنا لا أعرف سبباً علمياً لكثرة  
الولادات المتعسرة فى هذه الأيام...» .

قال سعد فى سخرية :

- «الدكتاتورية...» .

ضحك الشيخ علام فى حرارة ، وقال :

- «قد تكون الحالة النفسية السيئة وراء ذلك» .

هز طبيب النساء كتفيه قائلاً :

- «ربما...» .

وأغمض الشيخ علام عينيه قائلاً :

- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر : ٦] .

---

وغرقت البلاد في طوفان من اليأس والنكات السياسية، وكان سعد حريصاً على جمع تلك النكات، معتقداً أنها هي المعبر الحقيقي والوحيد عن رأى الشعب، بصرف النظر عن مصدرها، سواء أكان الحشاشون، أو المعارضون السياسيون، أو الطابور الخامس للاستعمار، وكان سعد يتمنى أن ينشر هذه النكات في كتاب - باعتبارها وثيقة تاريخية مهمة - لكنه كان يعلم علم اليقين أن الرقابة لا تسمح بذلك، بل قد يقدمونه للمحاكمة بسببها، وهو صحفي يعرف الكثير من خبايا الأمور.

وتساءل الشيخ علام:

- «ألن يفرجوا عن المعتقلين؟؟ اعتقد أن الوقت مناسب لذلك جداً، حتى يتحرك الشعب صفاً واحداً لتحرير سيناء، ومحو آثار الهزيمة...».

قال سعد في مرارة:

- «كلا يا أبى.. لقد اعتقلت مجموعات جديدة... هذا بالإضافة إلى معظم قادة الجيش الذين سيقدّمون

---



للمحاكمة.. وكذلك جماعة المشير عامر القائد العام  
للقوات المسلحة..».

قال الأب:

- «إذن لا تغيير يذكر.. النظام هو النظام..».

على الرغم من جو الوجوم والكآبة التي تجثم على  
البلاد، إلا أن الأمل لم يندثر، قد تمر سنوات طافحة بالمرارة  
والفقر والنكد، لكن الفجر يشرق دائماً، وإن طال الليل  
البهيم، وكان رشدي يقول لفضيلة: إن القضية ليست قضية  
سلطة غاشمة جاهلة، ولكنها أمة ومستقبلها.. وليس هناك  
بديل للبء من جديد، الجراح لن تبقى نازفة ملوثة، لا بد  
من ضمادها وعلاجها، والصبر طيب، والنجاة في العمل  
الجاد..

وكان الشيخ علام يردد دائماً أن الهزيمة ليست هزيمة  
رجال وسلاح، بقدر ما هي انهيار أخلاقى.. الناس في  
حاجة إلى مثاليات وقدوة صالحة، إن المثل القائمة نماذج  
منحطة، والقدوة غير مقنعة.. والعلم الحديث ليس مجرد

شعارات ومؤسسات فوضوية، ولكنه عمل وإنتاج..  
والعدالة الاجتماعية لا تكون فى القمع والإرهاب..  
المظلومون والخائفون لا ينتصرون..

ولم تكن فضيلة يائسة، لعل اللجنة التى تنعم فى رحابها  
قد روت روحها بأريج الأمل والثقة، واليوم هزيمة وغداً  
نصر ومع ذلك فقد لاحظت شيئاً من الوجوم على وجه  
زوجها رشدى القصاص، فقالت ووجهها البريء يتألق  
نضارة وحيوية وسعادة:

- «ما بك؟».

تمتم قلماً:

- «يبدو أنهم يراقبوننى..».

- «لماذا؟؟».

- «إننى أعرف المخبرين..».

- «هؤلاء الأغبياء!! هل هذا وقته؟؟».

- «العقول الفجة مازالت فى المستنقع..».

قالت فضيلة فى شىء من الضيق :

- «ليسوا أقوى من الله . . .» .

- «ليتهم يفهموا ذلك . . .» .

قالت فضيلة والدهشة ترتسم على وجهها :

- «لماذا يفكرون على هذا النحو الأحمق؟؟» .

- «لأنهم لم يجدوا من يؤدبهم أو يحاسبهم . . .» .

- طوقت رشدى بذراعيها . . «أنا التى ستؤدبهم . . .» .

وتضاحكا . .

قالت :

- «أعددت لك وجبة من الجمبرى الشهى . . ألا تلاحظ

أنك سمنت بعد الزواج؟؟» .

قال مشاكساً :

- «ذلك بسبب حرصى على التمارين الرياضية اليومية» .

- «بل بسبب مهارتى فى الطهى . . .» .



كانت فضيلة- ومعها رشدى- فى الطريق لزيارة الأب، وما إن دقت جرس الباب حتى سمعت أنيناً ينبعث من الداخل، فتح الخادم الباب، وهتفت:

- «ماذا هناك؟؟».

لم تنتظر الجواب، انجھت صوب الدرج، وصعدت مسرعة، ورشدى فى إثرها، وحينما توسطت صالة المعيشة فى الدور العلوى رأت أختها رنده غارقة فى السواد وحولها أطفالها، لم تستطع فضيلة أن تفتح فمها بكلمة، كان أبوها جالساً على كنبته المعهودة، والمسبحة فى يده، والدموع تسيل على وجهه.

صرخت رنده:

- «أحمد مات . . مات يا فضيلة . .».

أريدت سماء الأفراح، غشيتها موجة من الدهول، انفرطت دموعها كأنها مخزونة منذ آلاف السنين . . مات أحمد؟؟ هل هذا معقول؟؟ كان يجلس هنا منذ أيام قليلة . . فى ذلك الركن الغربى بالذات . . هذا مقعده . .

---

وتلك صورته والنجوم الذهبية على كتفيه . . مات؟؟ أهكذا  
بسرعة . . وجاءها صوت رندة مرة أخرى :

- «قتلوه . . المجرمون قتلوه . . لم يفكر فى الموت  
أبدًا . . ولا أنا . .» .

- «الحزن الصامت قاتل . . تكلمى يا حبيبتى . . قولى أى  
شئ يا رندة . . اسخطى . . العنى . . أطلقى الرصاص إن  
استطعت . . إنهم قتلوه . . إنهم سرقوا نور حياته . . ويتموا  
أطفاله . . وتركوك أرملة فى وقت مبكر . . لكن الحزن  
الصامت يخرسنى يا حبيبتى ، وأنا أختك ، وأعرف النار التى  
تشتعل فى قلبك . . لتنس الذكريات الحلوة يا حبيبتى فقد  
ماتت . . هم الذين اغتالوا الحب والذكريات . . الحزن  
الصامت يحرقنى يا حبيبتى ، وأنا لا أعرف كيف أخفف  
عنك . . لا أعرف كيف أسوق الكلمات . . هل تحمل كلمات  
عزائى لك معنى؟؟ هل يجدى قول عند الموت . . الموت هو  
التعبير الأقوى . . لن يحتاج لتعبير آخر . . الحزن الصامت  
يتفجر . . ينداح لهيباً فى قلبى . . بركان يغرق كل الدنيا . .

لن أتكلم .. لن أتكلم يا رندة .. فسأبقى صامتة في  
حزنى .. صامدة في حزنى .. لا أملك إلا الدمع  
الأخرس .. »

ودارت بفضيلة الأرض ، وأظلمت الأضواء في عينيها ،  
ثم سقطت على الأرض مغشياً عليها ..

التفوا حولها محاولين إفاقتها .. حملوها إلى سرير  
أيها .. زوجها رشدى الطبيب يقف مذهولاً وكأنه نسي  
الطب .. أما زوج أختها سميرة طيب النساء والولادة ، فقد  
تمالك أعصابه ، وأخذ يفحصها بتؤدة ودقة ، وأحضر من حقييته  
محققاً وعقاراً .. وبعد دقائق فتحت عينيها المحققتين ..

قال طبيب النساء لرشدى :

- « لا تدعها تترك السرير الآن ، والأفضل أن تأخذ لها  
عطلة مرضية .. اعتن بها أكثر ؛ لأنها حامل .. لم يستطع  
سعد علام أن يحجز مساحة في الصحيفة التى تعمل بها  
لكتابة نعى للمقدم أحمد ؛ لأن الأوامر كانت صريحة بمنع  
ذلك ، كان سعد يجلس مغتماً إلى جوار أخته رندة ، وعلى

وجهه ملامح حزن ثقیل ، ومن آن لآخر ينظر إلى أبيه الشيخ الذي تتقاطر دموعه في صمت ، وانتهاز سعد فرصة خروج رندة لأمر ما ، وخطا صوب أبيه ، وقال في انفعال مكتوم :

- «إن دموعك يا أبى تزلزلنى . . .» .

قال الشيخ بصوت مخضل بالدموع :

- «أنا لا أبكى من أجله ، لقد أفضى شهيداً إلى رب كريم ، فى مكان أمين . . لكنى أبكى من أجلها . . أبكى عذاب الأحياء . . .» .

قال سعد :

- «رندة مؤمنة . . .» .

هز الشيخ رأسه قائلاً :

- «أعلم . . أعلم . . .» .

لكن دموعه ما فتئت تساقط . .





هدأت الدوامات العاصفة المخيفة ، وخشع الرعب المدلهم ، إن درجة التوتر النفسى العالية لدى الدكتور عادل فتوح قد خفت حدتها إلى حد كبير حين يتعاطم اليأس يتهاوى الإنسان إلى موقع لا اهتمام فيه بموت أو حياة ، ذلك ترجمان العجز الشامل . . «لبنى عشت مثل أبى «فتوح» . . كان بسيطاً غاية البساطة . . لا يأكل أكثر من نوع أو نوعين ، ولا يلبس إلا القطع الثلاث صيفاً وشتاء ، ورحلته اليومية لا تخرج عن الذهاب إلى الغيط أو المسجد ، كان هادئاً مستقراً برغم الفقر والحاجة . . وحينما مات لم يشغل معارفه إلا بقضية حمله إلى مقره الأخير . . واستمرت فى القبر رحلة الهدوء والاستقرار . . رحمه الله لم يهتف لأحد ، ولم يتكاثر عليه الزبانية ليأخذوه إلى المعتقل ،



ويشربوا جلده بالسياط . . لم يشرب الويسكى ، ولم يأكل  
الجمبرى طول حياته . . لم يدخل «جنة» نادية عبد الباقي ،  
كان بيته الطينى الصغير هو جنته . . لا . . لا . . الجنة كانت  
فى قلبه ، وجنة القلب تتصل مباشرة بجنة الله فى الآخرة . .  
قال لى ذات يوم : القناعة كنز لا يفنى . . ضحكت !!

هذه كلمات قديمة يرددها السذج المقهورون . . سلام  
عليك يا أبى فى الآخرين . . وكان عادل حسن الحظ إذ تقرر  
عدم تقديمه للمحاكمة ، والاكتفاء بمد اعتقاله فترة أخرى  
لأجل غير مسمى ، وخرج رفاقه الشيوعيون إلى عالم الحرية  
كما توقعوا . . لقد قالوا لعادل : إن الوضع بعد الهزيمة  
يفرض على الحكومة إن تزيد من تحسين وتطوير علاقتها مع  
الروس حتى يحصلوا على المعونة والسلاح لاسترجاع  
سيناء ، وإصلاح ما فسد ، وكنتيجة حتمية لهذا التصور ، فلا  
بد من الإفراج عن بعض الشيوعيين المعتقلين ، وإعادةتهم  
إلى وظائفهم ، وإلى مراكزهم فى المنظمة والحزب . . لقد  
اعتصرته الحسرة يوم غادروا المعتقل . . كاد أن يتشبث  
بأذيالهم ، ويقول : خذونى معكم رحمة بى . . لكنه لو فعل

ذلك فسوف يسخرون منه . . لقد اصطاح معهم قبل أن يخرجوا . .

«ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى

له عدوٌّ ما من صداقته بد»

كما قال الشاعر القديم . . لقد علمته الأحداث القاسية كيف يحسن علاقته مع جميع من يعرف . . نعم . . سواء أكان يكرههم أو يحبهم . . لا فرق . . الأحداث تولد المواقف . . ذهبت فضيلة إلى الأبد . . أخذها «الغراب» وطار، كما كانت تقول جدتي في حكاياتها الخرافية . . انتصر رشدى القصاص، هزمت أنا . . الهزيمة هي السمة الغالبة في هذا العصر . . عندما أعود إلى الكلية مرة أخرى فسأجد دنيا غير الدنيا، وعندئذ لن أفكر في شيء سوى أن أتعلم وأعيش . . يكفي أن أعيش، وسحقاً لكل مبادئ العالم، شرقاً وغرباً، أنا لن أعتب على فضيلة برغم أساى الخالد . . لو سألتني اليوم: «هل أنت مذب» لقلت لها على الفور: «نعم» . . لقد حاولت أن أنتصر بالكذب والخديعة

---

والخيانة .. إننى أذكر بيتاً قديماً من شعر عترة العبسى ..  
أذكره جيداً .. كان يقول :

ولا عتبٌ علىَّ ولا ملامٌ

إذا أصلحتُ حالى بالفسادِ

وأنا حاولت تحقيق النجاح بأبشع الوسائل فقد كل  
شئ ..

أطلق عادل لحيته ، واعتزل كل من فى المعتقل ، وقرر أن  
يكمل رحلة الحياة وحده ، توسل إلى طبيب السجن أن يعيره  
بعض الكتب الطبية فى الجراحة ، وعلى الرغم من أن  
اللوائح لا تسمح بذلك ، إلا أن الطبيب تعطف عليه ، ونقله  
إلى المستشفى ليقوم فيها تحت رعايته ، مدعياً أنه مريض ،  
ويحتاج إلى عناية خاصة ، وأدوية كل ست ساعات ، ثم  
قدم له الكتب العلمية التى طلبها .. كانت مستشفى السجن  
جيدة التهوية ، حسنة الفراش ، ومتميزة فى أنواع الغذاء التى  
تقدم للمرضى المعتقلين ، ووجد عادل بالمستشفى نخبه من  
المثقفين والأغنياء الموصى عليهم .

والحقيقة أن طبيب السجن لعب دوراً كبيراً فيما يتعلق بتحسين صورة عادل فتوح لدى رجال المباحث العامة، وقدم عنه تقديراً جيداً، وأوعز إلى عادل أن يكتب بعض الالتماسات، ويبدى فيها إيمانه بالثورة وزعيمها، واستعداده للتضحية الكاملة من أجل أداء واجبه الوطنى فى إطار ذلك المفهوم . .

وفى هذه الأثناء قررت الحكومة الإفراج عن عدد من الدفعات تخفيفاً للأمة، واستعداداً لجولة جديدة مع إسرائيل . .

وفى يوم مشهود لا ينسأه عادل أبداً ، جاءه طبيب السجن مستبشراً، وهمس فى أذنه قائلاً:  
- «سوف تخرج بعد أربعة أيام . . لقد قرأت اسمك فى كشوف المفرج عنهم بنفسى . .» .

لم يستطع عادل أن يكتم فرحته، فانقض على طبيب السجن تقيلاً واحتضاناً، والدموع تنهمر من عينيه . . لقد دبت الحياة فى الكيان المحتضر . . ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [الحديد: ٢] كادت تتحول الفرحة إلى  
لوثة.. لكن الطبيب قال فى جد:

- «تماسك.. الأمر سرى للغاية..».

سوف ينام لأول مرة سعيداً منذ فترة طويلة، لكن كيف  
ينام؟؟ تحول ضيق الحياة إلى امتداد فسيح، وشرد خياله إلى  
العالم الرحب.. ما أروع الزحام والعمل والحياة.. نشوة  
كبرى تهزه هزاً.. إنه يغنى بصوت خفيض.. ويعزف بفمه  
مقطوعات موسيقية هائلة دون قواعد، وفى الحمام أخذ  
يرقص.. «هل جنت يا عادل؟ ما هكذا يفعل الناس  
المحترمون.. كن وقوراً عاقلاً».



ذهل حينما رأى «نادية عبد الباقي» تنتظره فى وزارة  
الداخلية يوم الإفراج عنه، وما الذى أتى بها؟؟ كيف  
عرفت؟؟ لقد قرر من قبل أن يتصالح مع كل الناس..  
شعور طيب أن تفكر فى وتأتى لاستقبالى.. قالت:

- «أجر.. وعافية..».

هز رأسه دون أن يجيب . .

صحبته إلى الخارج ، كانت سيارتها قابعة في مكان قريب .

تمتت :

- «السجن للرجال . .» .

قال في شرود :

- «من الصعب أن يظل الإنسان متماسكاً في هذا المكان الرهيب . .» .

أدارت المحرك . . قال :

- «إلى أين؟؟» .

قالت وهي تتحرك بالسيارة إلى عرض الشارع :

- «لقد استولوا على شقتك بعد اعتقالك . .» .

قال في دهشة :

- «من فعل ذلك؟؟» .

- «الذين سهلوا لك أمر الحصول عليها فى البداية هم الذين أخذوها . . وماذا فى ذلك؟؟» .

هتف فى خنق :

- «وأين أذهب؟؟» .

- «أنت ضيفى حتى تتضح الأمور . . الشقة يمكن تعويضها . . المهم أنك خرجت سليماً معافى . .» .

وقهقهت قائلة :

- «ألا تحب الولوج إلى جنتى مرة أخرى؟؟ كنت أحسبك متشوقاً إليها!!» .

اقشعر بدنه . . شعور غامض غلاب يهز جسده . . شعر بشيء يشبه الدوار . . حاول أن يقاوم . . صرخ :

- «قضى!!» .

- «لماذا؟؟» .

- «أريد أن أنزل هنا . .» .

- «هل ترفض مآدبتي التي أعددتها لك .. تستطيع أن تأكل وتنصرف ..» .

غمغم في حيرة :

- «لقد قررت أن أغير كل شيء ..» .

قالت وهي تدور بالسيارة عند أحد المنعطفات :

- «التغيير لا يأتي بقرار ، وهو عملية شاقة في هذه الأيام ، هل تصورت أن الهزيمة غيرت شيئاً؟؟ أشياء تافهة لا معنى لها .. كل شيء تقريباً على حاله .. تستطيع أن تقول : إن هناك إعادة ترتيب في أمور فرعية .. هل تحب أن تسكن في فندق؟ شقتك الصغيرة القديمة لا تصلح لرجل في مركزك ، والعنكبوت يعيش فيها ..» .

وأضافت ضاحكة :

- «هل أصبحت تعاف جنتي لهذا الحد؟؟ إنني لا أفرض عليك شيئاً .. لكن تأكد أنني الوحيدة التي عشت معك مأساتك ، بذلت المستحيل للإفراج عنك .. ويوم أن عرفت أنك ستخرج كاد يغمر على من الفرح .. ولهذا أتيت .. هل



أتى لاستقبالك أحد غيرى؟؟ أنا لا أريد منك ثمنًا لإخلاصى ..  
إننى أفعل ما يئليه على شعورى دون تكلف ..» .

ظل صامتًا يفكر فى كلماتها، تذكر أحداث الماضى،  
وغيبوبة الزمن القديم، وأحلام المجد الغابر، تذكر الغابة،  
والذئاب، والصراع، والأنياب، والمخالب، والدماء،  
والصراخ .

أيقظته من خواطره قائلة :

- «انظر من حولك عبر النافذة .. انظر كى ترى العالم،  
استمتع .. هل تغير شيء؟؟ هل تريد أن تسمع «أم كلثوم»  
احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة؟؟» .

غدّ بظهر الغيب واليوم لى

وكم يخيب الظن فى المقبل

ولست بالغافل حتى أرى

جمال دنيائى ولا أجتلى ..»

كانت تغنى ، وصوتها يلامس أذنيه كأنامل رقيقة مؤثرة  
رغم تواضع إمكاناتها الفنية ..

صعدا إلى الشقة . . كانت هناك خادمة تقف في الانتظار ، طلبت منها نادية أن تعد المائدة على عجل ، ثم تنصرف ، شعر بقدر من الهدوء والخدر يسرى في جسده وهو في نهاية الأكل ، لم يستطع مقاومة البريق المغرى الذى ينبعث من كأس الويسكى . . الأغاني التى عرفها تنبعث من المسجل . . وعاد يفرق في الرؤى الحالة . . مثل الأيام الخوالى . .

استقبلوه في الكلية بترحاب وتعاطف لم يكن يتخيله ، وأقاموا له «حفلة شاي» محدودة ، وطلبوا منه كلمة ، شكرهم بحرارة وصدق ، وأشار إلى أن ما حدث لم يكن سوى سوء فهم ، وأنه ما زال وفياً لمبادئه ، مؤمناً بالثورة ، واثقاً أن جيشنا قادر على محو آثار النكسة . . وأنه سيظل للأبد الجندى المخلص لقيادته . .

وحاول عادل في الأيام التالية أن يجدد اتصالاته ، ويلتقى بالمسؤولين ، وتكللت مساعيه بالنجاح ، وعاد مرة أخرى إلى المنظمة . . وإلى الحزب . . ليواصل المسيرة . . على الأقل حتى يمكنه أن يعيش . .

---

وأصبحت إقامته مع نادية عبد الباقي أمراً مألوفاً،  
وأصبح يخرج ويدخل دون حرج، تماماً مثل ما يفعل وهو  
يحضر اجتماعات المنظمة والحزب دون حرج أيضاً، متناسياً  
ما كان من إهانات لحقت به من النظام الذى يخدمه، ومن  
الرفاق الذين اعتقلوا معه . .

قالت له نادية فى المساء:

- «هل أنت سعيد؟؟» .

قال متنهداً:

- «هذا زمان الأقنعة . .» .

بدا على وجهها الألم، أدرك أنها أصيبت بخيبة أمل .

قال فى تأكيد:

- «أنت شيء آخر . . إننى أخلع الأقنعة على عتبة

بابك . .» .

أشرق وجهها بالفرح، وقالت:

- «كنت واثقة من ذلك» .

---

وصمتت برهة، ثم عادت تقول :

- «لقد استعدت كل مواقعك القديمة . .» .

هز رأسه قائلاً :

- «أجل . .» .

- «وقد يأتى يوم تصبح فيه رئيساً للقسم . . أو وزيراً

للصحة . . ترى هل ستذكرنى آنذاك؟؟» .

ابتسم فى مرارة دون أن يجيب على تساؤلها، ثم قال :

- «لقد يسروا لى أمر الحصول على شقة جديدة فاخرة

فى مكان ممتاز . . من شقق وزارة الأوقاف . . إيجارها

رمزى . . رمزى جداً . . خمسة جنيهات، مع أنها تحتوى

على خمس غرف وصالة ودورتى مياه . .» .

لم تستطع أن تخفى توترات القلق التى ارتسمت على

وجهها، وأوشكت دموعها أن تنفرط، لكنها تماسكت قائلة :

- «هل ستركنى؟» .

- «نحن معاً فى العمل، ولست بعيداً عنك خارج العمل» .

---

ألف مرة فكرت فى أن تعرض عليه الزواج ، لكنها كانت تعلم أن ذلك مستحيل ، عندما عاش معها تلك الأيام المنصرمة خيل إليها أنها كونت أسرة كباقى خلق الله . . لكنه كان وهمًا . . إن الحلم الجميل يتبدد ، وبعد يومين أو ثلاثة تعود وحيدة كما كانت . . ومن يدرى قد يجد «فضيلة» أخرى ويتزوجها ، وتصبح أيام الأحلام مجرد ذكرى طواها الفنان ، وعفى عليها النسيان . .

لعله أدرك ما تفكر فيه . .

ولعلها هى الأخرى أدركت ما يعتمل فى داخله . .

لكنهما لم يجدا شيئاً يقولانه . .

**تمت**

**نجيب الكيلانى**

دبى حتى ٢١ / ١٠ / ١٩٨٥م



## كتب المؤلف

### روايات:

- ١- الطريق الطويل .
- ٢- اليوم الموعود .
- ٣- فى الظلام .
- ٤- عذراء القرية .
- ٥- ليل العبيد .
- ٦- الربيع العاصف .
- ٧- الذين يحترقون .
- ٨- أرض الأنبياء .
- ٩- النداء الخالد .
- ١٠- رأس الشيطان .
- ١١- ليل الخطايا .

- ١٢- طلائع الفجر .
- ١٣- حمامة سلام .
- ١٤- مواكب الأحرار .
- ١٥- نور الله (جزءان) .
- ١٦- قاتل حمزة .
- ١٧- دم لفطير صهيون .
- ١٨- عمر يظهر في القدس .
- ١٩- ليالي تركستان .
- ٢٠- عمالقة الشمال .
- ٢١- عذراء جاكرتا .
- ٢٢- الظل الأسود .
- ٢٣- رحلة إلى الله .
- ٢٤- رمضان حبيبي .
- ٢٥- حكاية جاد الله .

٢٦- ليالى السهاد.

٢٧- أميرة الجبل.

٢٨- رجال . . وذئاب.

**قصص قصيرة:**

٢٩- موعدنا غداً.

٣٠- العالم الضيق.

٣١- عند الرحيل.

٣٢- دموع الأمير (رجال الله).

٣٣- حكايات طيب.

٣٤- فارس هوازن.

**دراسات:**

٣٥- إقبال الشاعر الناصر.

٣٦- شوقي فى ركب الخالدين.

٣٧- الطريق إلى اتحاد إسلامى.



- ٣٨- الإسلامية والمذاهب الأدبية .
  - ٣٩- المجتمع المريض .
  - ٤٠- الإسلام والقوى المضادة .
  - ٤١- حول الدين والدولة .
  - ٤٢- أعداء الإسلامية .
  - ٤٣- تحت راية الإسلام .
  - ٤٤- فى رحاب الطب النبوى .
  - ٤٥- نحن والإسلام .
  - ٤٦- أدب الأطفال فى ضوء الإسلام .
  - ٤٧- حول المسرح الإسلامى .
  - ٤٨- آفاق الأدب الإسلامى .
  - ٤٩- تجربتى فى الأدب الإسلامى .
  - ٥٠- ملامح من حياتى - جزء أول .
  - ٥١- ملامح من حياتى - جزء ثان .
-

شعر:

٥٢- نحو العلا .

٥٣- أغاني الغرباء .

٥٤- عصر الشهداء .

٥٥- كيف ألقاك .

٥٦- مهاجر .

مسرح:

٥٧- على أسوار دمشق .

●●●

هذا بالإضافة إلى بعض الدراسات الصحية الأخرى .